عبد الحكيم قاسم

الظنون والرؤى


الظنون
والرؤى

الظنون والرؤى

عبد الحكيم قاسم



دار المستقبل العربي

تصميم الغلاف
للفنـــان : جـــودة خليفـــــة

الطبعـــة الأولـــى ١٩٨٦

دار المستقبل العربي
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت ٦٦٥٩٠٠ القاهـــــرة

القضية

عبد الحكيم قاسم

● الدعوى

زفر مقهورا

ـــ أنا لم أقتلها ..!

فك اللفاع الصوفى عن رقبتة قليلا ليتنفس . الناس يقولون عن هذا اللفاع ، إنه يأكل من رقبته فتنحل يوما بعد يوم . كلهم ذاهبون إلى مأتمها . يحس تزاحم خطوهم وأنفاسهم وخشيش جلاليبهم حوله . راجعون من صلاة العشاء . لذعه البرد والخوف فتشبث باللفاع ، يلتف حول رقبته مثل حبل المشنقة . إنقضت عليه نوبه السعال حتى كادت عيناه تخرجان من محجريهما ...

ـــ أنا لم أقتلها ...!

ويوشك السعال أن يقذف بروحه خارج صدره . إستند على حائط قليلا حتى إستعاد أنفاسه . عيناه المليئتان بالدموع لاتبصران ماحوله لكنه مشى يدب إلى مأتمها .

دار بعينيه من أسفل حاجبيه مستطلعا الوجوه الناكسة الصامتة . طرف محاذرا ناحية قارىء القرآن . محجرا عينيه عميقان مطموسان بالظلال . ملأه الوجه الأعمى بالخوف . أدخل رأسه بين كتفيه . كان وجهها أيضا مخيفا . كانت ساقاها نحيلتين كحديدتين . كانت إذا تسير تحجل . إرتعد كأنما يسمع خطوها

الحاجل يطارده فى عتامة الزقاق ليلة أن سرقت نقوده .

ليلتها تحسس جيب جلبابه فلم يجد النقود فى المنديل . إستدار مرعوبا صارخا :
ــ سرقت مالى ياإمرأه ...!؟

ومضت عيناها فى الظلام كسكينتين وهو تضاءل أمام غضبها . صرخت فيه :
ــ إمش من قدامى .. ملعون أبوك .. نجس مالك !

إختنق . إحتبس نفسه تماما . تعلق بوجه قارىء القرآن المخيف نظره . السعال إنقض عليه مرة أخرى يمزق صدره . دارت وجوه المعزين ناحيته والقارىء سكت وهو قام بسعاله خارجا ينشد الهواء . إستند على حائط وظل يسعل حتى برد جسمه وتثلجت أطرافه وأحس برأسه يذوب . إنهار جالسا بجوار الحائط .

ليلة أن ضاعت نقوده ذهب إلى إمام الجامع وبكى بين يديه :

ــ إنها كانت ماشية فى الحارة على إثرى .. وصرة النقود سقطت منى ... هى إلتقطتها بلاشك .. وهى المتهمة بلا شبهة ..!؟

وإمام الجامع أطرق قليلا ثم قال :

ــ فليقض شيخ المندل فى الأمر بعلمه اللّدُنّى ...!!

● القضاء

تعذب إمام الجامع عذابا أليما ليقوم واقفا من مجلسه على الدكة . طويل نحيل كعود

القصب . يفرج بين ساقيه . شيء مامدلى بين وركيه يثقله بطريقة أليمة . وجهه أصفر كالميت . عيناه مائجتان . مضى تاركا المأتم . يسير خطواً قصيراً مضطربا مثل طفل يتعلم المشى .

يحس عيون المعزين فى ظهره ، وطنين صوت قارىء القرآن الأعمى . خائف لم يعتد بعد ظلمة الشارع . الأركان مشحونة بغموض غريب . تداخل فى نفسه . يمشى خطواته المتعثرة . يتجاسر الومض فى جنبات العتمة . الخوف يسرى فى أوصاله . يتصورها عيوناً تومض بالإدانة . يكاد يموت خوفا . بذل جهداً ليحرك موات شفتيه . تخرج الكلمات من فمه مرتعشه . آية الكرسى تدثر قلبه بالأمان . إنطلق يقرأ متشبثا بالحروف .

يالسر الكلمات . إرتفعت همساته بالتلاوة وإزدادت هزات رأسه عمقا . غمر روحه الأسى فتحدرت دموعه غزيرة ذليلة . كم سهر وحيداً فى الليل . كم سهده سر الكلمات ، لكنهم لايفقهون . هؤلاء الفلاحون . البقر العمى القلوب .

إعتادت عيناه العتامة فأصبح يرى . وقف مستنداً على عصاه ناحلا مفرج الساقين ينظر إلى الأمام بعينين مريضتين وحوله تقف أكواخ الطين السمراء صامته تتدلى على جباهها عيدان الحطب ثقيلة الأهداب بالندى . همس محدثا أكواخ الطين كأنما هى الناس قعوداً على حصر المسجد الجامع :

ـــ كانت لها عينا شيطان مريد .. كانت تجحل كقردة .. لم تكن أبداً إمرأة صالحة .. حطب جهنم .. حقت عليها كلمة الله بما سرقت ..!!؟

● التنفيذ

جاء الناس جميعا . ضجيج هائل . وقف إمام الجامع وسط الحلقه نحيلا مفرج الساقين مستنداً على عصاه وبجواره شيخ المَنْدَل . رفع هذا ذراعيه إلى أعلى فسكت الناس تماما . مد يده فقبض على معصم طفل صغير . مات الولد خوفا . وضع صاحب المندل على الكف الصغيرة المبسوطة قلة هجينا لم تبل أبداً بماء . ترك القلة فى يد الطفل المرتعشة المبسوطة ورفع ذراعيه ووجهه إلى السماء وبدأ يتلو كلمات غريبة غير مفهومة لأحد . وجهه معروق مخيف . صرخ فى الحاضرين :

ــ فليعترف السارق بجرمه قبل أن تحل به الفضيحة ... وإلا فان القلة سوف تعرفه بسر الكلمات .. وبسر المندل ..!!

تقبب الصمت كأنما هو منصوب على شواهد قبور طينية .
بدأت القلة تهتز ، ترقص ، تميل والولد منقاد لها من ساعده النحيل . تأخذه سائرة به إلى داخل الحارة والناس خلفها زحام صامت لاهث الأنفاس حتى دار المرأة السوداء الصغيرة . دار كالجحر بلا بهيمة ولا عيال .

وما إستقرت القلة على الدار حتى صرخ الناس . صرخة واحدة . صرخة وحش متعطش للافتراس . إلتصقت المرأة بالجدار تصرخ مرعوبة . تقدم إليها إمام الجامع :

ــ ردى المال إلى صاحبه ياسارقه !!
وصراخ جمع الناس وراءه
ــ سارقة .. سارقة !!

والمرأة السوداء الصغيرة لاينقطع نحيبها المرعوب الملتاع .

عاد الناس إلى الباحة على رأس الحارة . وقف الجميع متحلقين حول إمام الجامع والشيخ صاحب المندل . أخرج هذا قربة . ظل ينفخ فيها متمهلا وئيداً ، والقربة تنتفخ رويداً رويداً ، تتجسم فى شكل حيوان نافق منتفخ .

وشيخ المندل تكلم خاطبا :

ـــ علقوا هذه القربة فى دار قوم صالحين .. سوف تحل لعنتها على السارقة .. تنتفخ وتتعذب حتى الموت ..!

وقد كان . وعلى هذه الصورة ، على صورة حيوان نافق منتفخ ، وجدت المرأة السوداء الصغيرة فى دارها ميتة بعد أن إختفت أياما لزمت فيها الدار لم تبرحها .

هكذا ماتت وهاهم الرجال فى مأتمها ناكسوا الرءوس يسمعون القرآن من غلام مفقوء العينين .

● الحقيقة

كانت إمرأة طيبة ، سوداء صغيرة طيبة . لم يعرف أحد بنت من ولا إلى من تنتمى . هكذا كانت . صبارة وحيدة لاتعرف من زرعها . لكنها كانت طيبة ، تبكى وتضحك كالأطفال وتخمش من يؤذيها كقطة . تدور سحابة يومها على السكك تجمع السنابل الساقطة من أحمال الجمال وتجمع الروث والحطب لوقود كانونها .

وهو ..؟ لاحول ولا قوة إلا بالله ... ماذا كان بوسعه أن يفعل ..؟ كانت النقود فى جيبه طول الوقت . المال المسروق ملفوف فى قماش المنديل ومعقود عليه عقدتين .. لكن ياستار .. ماذا كان بوسعه أن يفعل ..؟

عيناه مغمضتان ورأسه ناكسة وصوت قارىء القرآن يأتيه من بعيد . كأنما الله يعاتبه . وكأنما ثقل صرة المال الحرام فى جيبة تجذبه تهوى به إلى العذاب . الناس تضطرب بالأمر إضطرابا شديدا وهو جامد مشلول ، من ساعة مالقط الصرة من الأرض فى عتامة الزقاق وهو جامد مشلول لايسعه أن يقدم على فعل .

نظر ناحية الرجل الذى يسعل بشدة . ود من قلبه لو أن روحه خرجت مع إحدى سعلاته ذلك الإبليس المرابى . ماينقصه لو ضاع منه ملء منديل وعنده فى طاقة الجدار كوز ملىء بالجنيهات . كم فرح عندما لقط المنديل من على الأرض عند كعب هذا الكلب . وهو الآن يقبض على الصرة بشدة موجعه وكفه تنضح عرقا .

يوم المندل ذهب مع الناس ليرى . صرة المنديل فى جيبه تقبض عليها يده . القلة تمر به . قتل ألف مرة بفأس ثلمة . لكن القلة إجتازته ومشت نحو دارها . ياستار . ماأتعس الناس الضعفاء المقطوعين .

ماذا كان يمكنه عمله ..؟ كانت القربة منفوخة معلقة فى وسط دار رجل صالح والناس لاينامون من الرعب . وهو قعد فى دهليزه مفتوح الفم مفتوح العينين جامداً لايطرف إلى أن أعلن صراخ النسوان موتها وتنفست القرية الصعداء ... ها هو فى مأتمها وصوت قارىء القرآن يأتيه كالنواح .

نواح يجتاح داخله . رعب يسحقه . يتفصد لحمه كأنه مريض بألف علة غريبة على الحكماء . هب واقفا . إنطلق لايلوى على شىء إلى بيت المرابى . كان

متقرفصا فى وسط داره يسعل يذهله السعال عما حوله . ألقى فى حجره بصرة المنديل وهرب لم يعرفه أحد .

● والناس نسوا

فان للأيام القائظة أصائل ناعمة . وساعة العصر تكون الباحة على رأس الحارة ملعبا للنسمات الطرية . وبائع القماش يأتى ويحل صرته عن الأثواب الباهرة الألوان . والنساء حوله يضحكن ضحكات مكركرة ذات ذيول .

وساعة العصر يأتى بائع الأباريق ــ ذلك الجسور ــ أسود الساعدين أسود الفخذين عظيم الهامة عظيم الآلة . يقيم الأباريق حوله كأنهم أطفال سود ساكتون . يعابث النساء ذلك الجسور وهن حوله مائتات ضحكا .

وفى قيعان الدور تتعرين . يتدفق الماء الساخن من الأباريق يلذع الأجساد العارية لذعاً جسوراً . تنبعث تحت وقع الماء على الأجساد الرجفات والشهقات . ثم تمضى زرافات النساء إلى محل الزار يرقصن على لحن الدفوف الوحشى فى الجلابيب الملونة حتى الغياب . إنهن كن قد شيعن نعشها حتى آخر الحارة وصرخن وراءه حتى إنقطعت أنفاسهن

عبد الحكيم قاسم

تحت السقوف الساخنة

عبد الحكيم قاسم

● ياسادتى

ليست الأشياء هكذا دائما ،.ومقاييسكم ليست مطلقة ، ومن كومة القمامه قد تنبثق زهرة خارقة البهاء ، أو قد تسبح على وجه البركه المتعفنة الراكدة الناشبة فيه نباتات الماء . إننى مرات عديدة وقفت بازاء مثل هذا الجمال حائراً .

حقا إننا نملك شوارع تكتسح المسافة ، وسدوداً تلزم الأنهار شطآنها فى خجل ، وموسيقى تنفى عن الروح الضعة ، لكن تأملوا . حياتنا هذه كانت فى البدء أكداسا من الهلام عائمة فى مستنقعات شاسعة . ينبغى علينا إذن أن نتفكر ، أى طاقة هائلة تحتويها الحفر المبلولة والزوايا المعتمة .

من هنا أكتب لكم . الحارات تنحدر نابتة من الشارع الكبير كالشرايين على ظهر ورقة الشجرة . البيوت متزاحمة متراكمة وسط أكداس القمامة . البيوت كلها جديدة ، مبنية بالطوب الأحمر ولها سقوف من الأسمنت المسلح . بيوت بسيطة العمارة ، بل إنها جهنمية . السقوف الأسمنتية الواطئة تتحول فى وقدة الظهيرة إلى ألواح من نار قريبة من رؤوس السكان . ويخيلً إلىَّ أن قشرة الدماغ ربما يصيبها بعض التلف من تسلط هذه الحرارة عليها . بل ربما إختلط عمل المراكز

المخية . لا أجزم بذلك ، فلست متخصصاً .

الناس فى شبابيك البيوت مثل مقل مريضة حائرة فى نقر المحاجر . وهم أمام أبواب البيوت شاحبون مبقعو الوجوه ، يضحكون أو يبكون بعصبية وزعيق عال . وإذ يتعاركون يخشمون ويجرحون بقسوة غريبة . تسيل الدماء الحارة قانية . فجأة تجمد مسودة على الجروح إذا ماضربتها الشمس .

أكداس من القمامة فى كل مكان . فالناس طول النهار يرسلون العيال بالقروش إلى الدكاكين يأتونهم باللفائف الصغيرة . يفضُّونها ، يلقون بالبقايا من الشبابيك ويأكلون ، كأنهم جميعا معدة واحدة لها مليون فم ومليون يد تناول ومليون فتحة إخراج . أهذا هزيم التمطق أم دبيب الحياة الجبارة التى احتوتها أكداس الهلام العائمة فى المستنقعات الشاسعة فى الزمن القديم .

هنا رأيت كوثر . قبض الحزن قلبى . ياإلهى كم من العمر راح . لو كانت يدى قادرة على أن تطول النجوم ، أو تخط أكثر الكلمات عذوبة . لو كانت الدموع تظل تهطل حتى تغسل كآبة القلب .

ياسادتى من هنا أكتب لكم . فى قلبى وعقلى وروحى أجد كوثر ، العينين والغديرتين والأنامل .

● الفرح

من الشبابيك تطير الضحكات والتحيات والتنادى . خبر الفرح مثل نسمة طرية تطيِّر الكلمات الحلوة والغدائر والشيلان وذيول الفساتين وتشيع فى الوجنات اللون وفى العيون البهجة . دُخْلَةُ العريس على العروس الليلة ومكبرٌ الصوت يرن فى

جنبات الدنيا بالموسيقى والغناء . والناس تمشى فى جماعات فى إتجاه الحارة حيث العرس .

كوثر طائرة فى وسط الشارع . يدوس شبشبها فى الوساخة والبلولة ، يتلوث ، لكن كعبها يبقى نظيفاً . تلوّح بكفين سمراوين خشنتين من الشغل والشمس ، لكن الأظافر مطلية بطلاء وردى من عند أبله حسنيه إمرأة سى رمضان . ياربى كم هى فرحة . قلبها مربوط بخيوط إلى كل هذه الشبابيك المطلة منها وجوه صويحباتها مهتاجه بأخبار العرس .

كل آن تنزل واحدة . تمشى كوثر على رأس الجماعة السعيدة . كلهن ذاهبات إلى العرس . ملن من الشارع إلى الحارة . الحبال مشدودة بين واجهات البيوت على الصفين تحملْ المناديل الملونه والرايات وعقود من مصابيح الكهرباء . مكبرٌ الصوت مروّع حتى ليكاد القادم يسقط على ظهره من عنف الزعيق . لكن العروسة جالسة جنب العريس على كرسيين منصوبين على تخت عال يلمع على جباههما الضوء وحولهما الآلاتية وأمامهما تقف الراقصة والحارة مزروعة عيالاً ونساءاً ورجالاً وزعيقاً . خليط الغناء والعزف والضجة يقذف به مكبر الصوت عاليا إلى السماء فما يميز السامع منه شيئاً .

العروسة جميله . ياربى ماأحلى الزواج . كانت منذ يومين واحدة من صاحبات كوثر ، ثم جاء الحظ حط عليها ، خطفها من وسطهن . العريس فى شركة البلاستيك . شاب زين . من يوم الخطوبة يأتى بمظروف أجرة كل مدة أسبوعين ، يلقيه فى حجر عروسته بختم كاتب المصنع . تفتح العروس المظروف بيدها لتجد الأجرة كاملة لم تنقص مليماً . وضعوا القرش على القرش حتى إستطاعوا أن يشتروا كل شىء . اليوم دخلتهما . ماأحلى الزواج . قلب كوثر مُشَبَّع بالفرح مثل قرص عسل النحل .

لكن سرعان ماآن أوان الدخلة . زفت ست سنية الراقصة العريس والعروسة إلى غرفتهما مشت أمامهما ومعها الآلاتية وهي ترتدى الفستان الحرير الوردى المزين بالترتر اللامع وذيله يجرجر على أرض الحارة حتى النهاية . ثم عادت الراقصة لتجلس على التخت وحولها الآلاتية . ترى الكآبة بعد ذهاب العروسين مختلطة حتى بضوء الكهرباء وبألوان المناديل والرايات وعلى وجوه الناس . لحظة مليئة بخيبة الأمل . العروس للعريس والجرى للمتاعيس . هما الآن فى سرير العرس . آه ماأحلى الزواج .

أحاط الشبان بالتخت زاعقين زائطين يطالبون الراقصة بأن تبدأ . كوثر تعرف ست سنية تقابلها أحيانا ذاهبة إلى الدكان أو عائدة منه . تبادل البنت الست التحية مبتسمه عن أسنان ذهبية . تفرح كوثر بالابتسام . تعرف الآن أن الشباب يريدون أن يروا ست سنية ببدلة الرقص . خنق الخوف قلب البنت قليلا . تمنت ألا تخلع ست سنية رداءها الحريرى وتبقى عارية بتلك البدلة المدندشة .

أم آمال فرحة بأخواتها البنات الثلاث . شامخات متفجرات بالصبا . أجسادهن ملفوفة فى جلاليب اللينوه المشجر الخفيف حتى لتبدو السراويل ومشدات الأثداء . أبو آمال وأصحابه مخبرو الشرطة يدخنون سجائر الحشيش ويقرقعون بالضحك . كل آن يخرج واحد منهم مسدسه من تحت جلبابه البوبلين الأبيض ويطلق منه الرصاص فى السماء . يعقب ذلك عاصفة من زياط الجدعان والبنات . سى رمضان بشركة المقاولات واقف مع حميه سى خليل عضو الحزب ... على البعد يرتكن على الحائط سى حسن الشرطى الذى دركه فى العجوزة . يدخن شارداً ولا يكلّم أحداً .

صاحبات كوثر حولها يضحكن مرحات ويتغامزن على كل شاب حولهن ويختلفن فيه ، هل ينوى الزواج أم لا ، وأى واحدة منهن قد تروق له . تضحك كوثر

معهن لكنها تعود للشرود متأملة الناس حولها ، عائدة مرة أخرى إلى مراقبة الست سنية الراقصة متسائلة فى خوف ، أتراها تخلع ثيابها فعلاً . فى هذه اللحظة رأت كوثر أمها مقبله من أول الحارة . مازالت نضره كأنها الأخت الكبيرة . إذا حازت جماعة سى رمضان حيتهم . قبض هذا على يدها وجذبها إليه أوقفها إلى جانبه . تقلص قلب كوثر فى صدرها .

خلعت ست سنية فستانها الوردى وبقت شبه عارية ببدلة الرقص المدندشة وسط الجدعان المحيطين بالتخت يزعقون بها زعيقاً عالياً . طيات لحمها شائخة متهدلة فى تناقض مع وجهها المطلى بالأبيض والأحمر . تأملت كوثر ست سنية طويلاً وهى مقهورة ، ثم تحولت عيناها إلى أمها . مازال سى رمضان قابضا على كف الأم وهى واقفة إلى جواره . لاقت عيناها عينى بنتها . خلصت كفها ومشت ناحية كوثر . مشيا معاً عائدتين لاتريان فى ظلام الشارع بعيونهما العاشية من أنوار الفرح . تتخبط الأقدام فى الحفر المبلولة وفى أكوام الزبالة . ضجة مكبرٌ الصوت تدق الرؤوس بلا رحمة . تحدرت دموع كوثر على خدودها دافئة .

كوثر يابكرية أمك ، لماذا تبكين ؟ ياللك من بنت رقيقة ودمعتك قريبة .

● السوط الفولاذى

إحدى عينيه ثقل جفنها حتى إنسدل وظلت مغمضة . لايدرى أحد متى بدأ هذا ، ولا هو نفسه . ربما مرة غمضت هذه العين فكسل عن فتحها وتركها هكذا . ربما قال فى نفسه أن الأخرى كفاية . يشتغل فى مصنع الزجاج . ينقل هناك الأشياء الثقال من مكان إلى آخر . هذا عمل لايلزمه تحديق كثير . لما يفتح عينيه وهو يؤديه ؟ أحسن أن يغلقهما ، خاصة إذا كان الحمل ثقيلاً .

له حذاء غليظ متهرىء . مشى يدب فى الطريق على أكداس القمامة . حذاء قديم

فى قدمى عملاق قديم يتدفع فى مشيته عائداً إلى بيته . طول عمره يعود إلى بيته فى هذه الساعة تعباً . طول عمره . إشتغل عاملاً زراعيا ومبيِّضاً للنحاس وأشياء أخرى . الأمر لايختلف كثيراً . يروح لشغله باكراً ويعود فى المساء تعباً . ياله من عمر . ليس له شهادة ميلاد . لم يشغل نفسه بهذا . من أول الزمان وهو يدب رايحاً وآيبا على طرق متسخة بالبقايا . من أبوه ؟ من أمه ؟ كيف كانت دارهم وهو طفل ؟ لايذكر هذا الآن ولم يحاول أبداً أن يتذكره ، فما تجدى الفروق . السنون السود حشرت الناس هنا . رجال شعث غبر ونساء كالبقر العجوز جاءوا من كل القرى ، كدُّسوا فى دور تعذبهم بالحر وتعذبهم بالبرد ، فى بقعة أقصيت عن المدينة وأبعدت عن رحمة الله ، يعود إليها كل مساء من عمله موثق العاتق بالعناء .

ولقد كثر اللغط هذه الأيام حتى ليحس بغربة حقيقية ، يتكلمون كثيراً هؤلاء النحيلو المعاصم . وهم يملكون الآلات التى تجعل الأصوات عالية نافذة لاتستطيع أن تغلق من دونها الشبابيك . فى كل نافذة دكان ، على كل حائط ، على كل مئذنة ، على كل سطح دار يوجد مذياع أو مكبرٌ صوت . الناس فرائس هذه الضجة ، تستخرجهم من قيعان الغرف وتسيمهم العذاب بالخطب والآذان والغناء والاعلان عن البضاعة . يلقون إليك بالبيانات ، ينهون إليك آخر الأخبار ، يطربونك ، يعظونك ، يدعونك للصلاة ويحذرونك من معاص لاتعرفها . أين تهرب يتحدب الجسد العملاق من الخوف . أعضاء الحزب ذوو الأسنان اللامعة واللثى الزرقاء . هؤلاء الذين يملكون بطاقات يضعونها فى جيوب قمصانهم الشفيفة .

ثم إنطلقت فرقعات السوط الفولاذى كطلقات الرصاص . تترى باصرار وقسوة وحشية . يتحدب الرجل متحاشيا السوط الطائر فوق رأسه . يزداد تحدبا ومذلة ، والسوط طائر فى الهواء كأفعوان مصنوع من فقرات فولاذية تدوى فرقعاته وتظل

تدوى .حتى يقعى الرجل مهيضا مكسورا يعوى :

ـــ السماح ياعمى !

عندئذ ألقى المجذوب بالسوط على ظهره . حلقات من الصلب تبدأ فى حجم القبضة ثم تصغر وتستدق حتى تصير فى النهاية قدر حبة الشعير . السوط منسدل على قامة المجذوب حتى الأرض . يضحك ضحكات بشعه . تلمع أسنانه فى الضوء الشاحب . ملامحه مجنونة بالتشفى . مد يده فتناولها الرجل ، قبلها فى خضوع وعاد يواصل طريقه نحو بيته .

يدب فى حذائه المتهرىء . ذليل تسح الدموع فى داخله . تذكَّر إبنته كوثر ، بكريته ووحيدته . ليته إشترى لها شيئا طيباً .

لاتتعبى عينيك بالتحديق فى العتامة قلقا على أبيك ياكوثر .. إنه سيأتى على أى حال .

● جدار الخوف

شحمة أذنها تفرقت ثلاثة ألسن صغيرة . لم يبق الآن مجال لقرط ، وهى كانت تهوى القروط الثقيلة . طاقتا أنفها هائلتان . تشرع وجهها لأعلى وتشهق ، ثم تئوب ناكسة الرأس تعبث فى ملء جيب مرولتها من قروش الألمونيوم . تجلس على كرسى بجانب منضدة رخامية صغيرة . يأتى ولد نحيل . تلقى إليه بفردتى شبشبها من قدميها . يأخذهما الولد وينتحى بهما ناحية من الرصيف كيما يعكف على طلائهما .

من مكانها هذا ترى إمتداد المنازل على جانبى شريط القطار . منازل صغيرة مكدسة أسمنتية السقوف . أسراب الناس ـــ على البعد ـــ صغار سود كالنمل يدبون يعبرون شريط القطار من ناحية إلى الناحية الأخرى بلا كلال . كل آن يندفع قطار على الشريط داوياً مزلزلا قاطعا أسراب الناس بقعقعة الصلب الخرافى القوة . يجزع الناس . يقفون على الجانبين متراجعين . لكنهم يعودون مرة أخرى ، يدبون يعبرون من ناحية إلى الناحية الأخرى . وهى معهم ، من مكانها هذا تتبعهم بعينيها . ثم يزلزل القطار ويجمد قلبها خوفاً . حتى يذوى الضجيج مبتعداً . حينئذ يستريح خوفها وتعود تعبث بملء جيب مرولتها من قروش الألمونيوم .

لحظات الخوف تلك صنعت أيام العمر . أيام عصرت القلب بأصابع من حديد . يرحم الله رجلها . كان خشن الصدر عظيم الساعدين ثقيل الوطء . كان يلم مزق نفسها فى الليالى السود . كان يقبض على معصمها بكفة الضخم ويمضى بها وبالعيال يجوب أرجاء النهار مفزوع العينين يحفر فى الشقوق من أجل العيش . ثم إنه كان يشترى لها كل آن قرطاً ، فكم كانت تهوى القروط الثقال . لحظات الخوف ، والدمعة الدافئة بعد إنفثاء الفزع . ياله من عمر .

تدير هذا المقهى الصغير على محطة شبرا الخيمة . تقدم الشاى لراكبى القطر البطيئة . رجال طيبون وقطر قديمة تتلكأ قليلا هنا ، ثم تمضى تجرجر حديد أطرافها مقرقعة وهى من مكانها هذا على الرصيف ترى إمتداد المنازل الشاسع . لها تحت هذه السقوف الساخنة بنين وحفدة يدبون رائحين غادين مع هذه الأسراب السوداء . كثيرا ما يأتون يرفعون اليها وجوهاً تعرف فيها ملامحه . يرحم الله رجلها ، تدس يدها فى جيب مرولتها وتعطيهم قروشا من الألومنيوم .

كان يلم مزق نفسها فى الليالى السوداء ، ثم مات . العزاء أن الصبح يطلع بعد الليل الموحش . تلبس شبشبها وتسعى إلى المحطة ، إلى الأنس بزبائنها من ركاب

القطر البطيئة . رجال طيبون يرشفون الشاى وينصتون لها تحكى تضحك عن أسنان تالفة وهى تسأل : مانحن ؟ وتقول وهى فرحانة : بذرتنا يد مباركة . نحن كثيرون ملء الأرض . يحصد فينا الموت بمنجله ، ومن ورائه تخضر الربة ، ما إلتفت إلا صادفت وجهاً لصيقاً بوجهك . ثم تضحك وتشرب شايها وتضع قدميها فى شبشبها الذى طلاه الولد حتى أصبح يلمع . تطرف ناحية الطابور التى تراه على البعد يزحف عابراً شريط القطار فى تصميم . عزم رث مترب مصمم لايتردد . تجد فى قلبها بقايا نشوة قديمة . يرحمه الله رجلها . كان يلم شعث نفسها فى الليالى الموحشة .

فجأة إنطلق على القضبان قطار سريع . ضجة ترتج لها أرض الرصيف تحتها وهى جالسة . هبت واقفة وكوب الشاى فى يدها . القطار طائر بجناحين من ريح محمل بتراب أعمى عينيها . صرخت :

ـ أستر يارب ...!

شق القطار الطابور العابر قسمه . ضحية جديدة سقطت . رشق خنجر الفزع فى قلبها . ولولت كما لم تفعل فى أسود أيامها . يارب كل شىء . كيف عرفت أن القتيل هو أحد أبنائها كان ساعياً إليها .

فتحت للإبن الذى فقد ساقه دكانا ، فهو لايستطيع أن يعمل . كل يوم بعد أن ينتهى يوم عملها تمر عليه فى دكانه . تقف قبالته طويلا ، تتنهد ثم تمضى إلى بيتها . كوثر أيتها الصغيرة غير المجربة ، لايوجد رجل برجل واحدة . إنما يفقد الرجل ساقه ويبقى عمرة يتألم .

الناس أمم مغسولو الثياب ، قريرو الوجوه بالمذلة ، يمشون نحو المسجد فى الشارع المفروش بالقمامة . مكبرٌ الصوت يدوى بكلمات خارقة كأنها فرقعات صوت المجذوب ، والناس يمشون حتى المسجد . يخلعون أحذيتهم ويخطون على الحصير الرطب . يسلمون أنفسهم للعتامة الساجية ، صامتين كأنما على رؤوسهم الطير . إستمعوا للموعظة . صلوا وحينما انتهت الصلاة تلفتوا بحثا عن فعالهم . حينئذ صاح صوت خائر ملسوع :

ــ الفاتحة يارجال يامؤمنين .. اللهم إحرق قلب من سرق مذياعى ... اللهم إحرق قلبه كما حرق قلبى !

وتحركت الشفاة والقلوب تقرأ الفاتحة ، وتستمطر اللعنة وغضب السماء على اللص . فهؤلاء الناس لايخشون شيئا مثلما يخشون اللصوص والنساء ذوات الصدور والأرداف والعيون الجسورة .

أما هو فان له دكان بقالة صغيرة ، يقضى النهار مستنداً بمرفقه على طاولة البيع . بيده الأخرى يمسك عكازه . العيال النحاف الشاحبو الوجوه والنسوة والبنات ذاهبون إلى دكانه وآيبين من دكانه النهار بطوله فى مسارب كمسارب النمل الأسود .

لم يسمعه أحد أبداً يتكلم . له عينان واسعتان وشارب رقيق وذقن مزغبة . وحينما تلقى يد نحيفة قرشا فائة يرن على رخامة طاوله البيع الموضوعة فى فتحة الباب . حينئذ ينظر هو إلى الوجه الخائف فى حنان صامت . يتناول القرش ويلقى به فى الدرج يدور حول نفسه على رجل واحدة فى دكانه الصغير . ثم يظلع متحركا إلى

رفوف البضاعة . يأتى بالمطلوب يطرحه على البنك فى سكون .

مسارب الأقدام على الأرض المحملة بأكواب القمامة لاتعدم الحياة أبداً . ذاهبون إلى الدكان أو آيبون منه . يحملون المشتروات فى الأيدى ، والقلوب ترتجف بالهمسات كأسلاك البرق ، فى الغرف الساخنة السقوف يتكلمون بصوت أكثر إرتفاعاً ، لكنه أيضا خائف ومرتجف :

ـــ هل رأيت ذلك الذى كان واقفاً معه عصر أمس ؟
ـــ ذلك الولد فى القميص الأحمر ؟
ـــ نعم .. كانا يتكلمان ويتلفتان حولهما فى حذر ..!
ـــ ياخوفى أن تكون عيونهم على سكنى ..!
ـــ ماالذى عندك تخافين عليه ..؟
ـــ وعاء الطبخ النحاسى الكبير ..!

وتصمتان . يستطيل الصمت المتوتر . ثم فجأة ينفجر صراخ ملتاع فى ناحية من نواحى الحى . ينهمر الناس على مصدر الصوت . هناك يتكدسون جمهوراً زاعقاً صاخباً حاقداً . وفى بؤرة الجمع تقبض سواعد قوية على شاب نحيل زائغ العينين يحمل متاعاً مسروقاً . يرغم على أن يحمله على رأسه كشاهد لايكذب على إرتكابه الجريمة . تنهال عليه اللكمات والصفعات ترضه وتلهب أصداغه وتطيرٌ الشرر من عينيه . المجذوب وسط الجمع يفرقع سوطه فى نشوة . الفرقعات كطلقات مدوية . ثم تتحرك الزفة بالولد المتهم بالسرقة إلى مخفر الشرطة . هناك يتركونه ويرجعون ، الذين قبضوا عليه وسلموه . ينتشرون فى الشوارع بين البيوت مكونين نوبات صخابه . جماعات صغيرة كل واحدة تحيط بشخص يحكى ويحكى بفرحة غليلة يلحق بالحلقات العيال والبنات والنسوة العجائز ينصتون مبهورين بارقة عيونهم بالدهشة والخوف .

لكن الناس أيا ماكان الأمر لايكفون عن الاحتياج إلى قطعة صابون أو إلى ماثمنه بضعة قروش من الجبن الأبيض أو إلى ملء صحن من العسل الأسود . لايكفون عن التردد على الدكان راجفين بالهمس كاسلاك البرق . وهو لايغيرُ من متكئه على رخامة طاولة البيع . الحنان الصامت فى عينيه الواسعتين لايشوبه إهتزاز . وإذا ماإمتدت إليه يد بقرش دار حول نفسه على رجله الواحدة . ثم يظلع مستنداً على عصاه ، يأتى بالمطلوب دون كلمة . ثم يعود إلى سكونه الأول .

•

تمشى كوثر ناحية الدكان قابضة على فلوسها فى يدها . تضحك جداً ، فهى لاتعرف كيف تتزوج البنت رجلاً له ساق واحدة . لكنها تقول فى نفسها لابأس ، مادام طيباً وفالحاً . وإذا خطر لها مايقولة الناس عنه ، هزت كتفيها فى عدم تصديق . مثله لايسرق . فى عينيه طيبة وتعفف كأنه على صغر سنه أب أو أخ كبير . كم تسعد إذا إشترت منه شيئاً . لايقول ولايجادل ، إنما يفعل مايستريح إليه القلب . سوف تتزوجه . وإذا لم يقل لها سوف تبادئه هى بالكلام . تضحك جداً إذا تصورته معها فى حفلة العرس يمشى يظلع بساق واحدة مستندا على عصاه . لكنها تقول لابأس ، القلب يوده والروح تهواه . تمشى ناحية الدكان قابضة على فلوسها فى يدها .

رأت ناقلة الجنود تقف فى الشارع الكبير . تدفق منها المخبرون والشرط وركضوا فى الحارة الضيقة . إنقضوا على الدكان . مزقوا كل شىء إربا . كسروا كل إناء حطموا كل زجاج . دلقوا كل سائل وكبُّوا كل جامد . صرخوا وزعقوا ولكزوا بلا حساب . نشروا الرعب فى دائرة شاسعة . لم يكن ثمة من يصرخ سوى كوثر .

الناس فى الشبابيك كمقل حائرة فى عيون مرتاعة . الناس مزروعون فى الأرض دوائر دوائر حول الواقعة يرون الاجتياح بلا حراك . والأعرج بين يدى الشرط كخرقة . عجنوه عجناً . تمزق الثوب . سال الدم . طمست العينان

بالكدمات . طار عكاز الأعرج . وحمل المضروب ، يمضون به مدمدين . يقفزون من كل ناحية على الناقلة . زبجرت هذه زبجرة هائلة وإنطلقت كاعصار من حديد .
أغلق بب الدكان . وضع عند إجتماع المصراعين شريط من القماش وختم بالشمع الأحمر . الناس يمرون من الحارة محاذرين . ينظرون خائفين إلى الشريط من القماش والختم المرسوم على الشمع الحكومى . ثمة خراب . خراب حقيقى . وفى تضام المصراعين باحكام معنى العمى والهمود .

لا تراعى ياكوثر . ناس كثيرون يلقى بهم فى السجون هذه الأيام . وكلهم سيعودون . سيعودون يوما ما . وإذا كنت قد تزوجت بآخر فسيجد هو أخرى . سيجد إبنة الحلال التى تسعد قلبه .

● أحدهم

يأتيـان إلى بيتهم كل يوم ، سى خليـل عضو الحزب وسى رمضان بشركـة المقـــاولات . يأتيان عصر كل يوم . يجلسان على الكنبة الموضوعة فى مواجهة السرير فى الغرفة الوحيدة . يمددان سيقانهما ويلقيـان برأسيهمـا إلى الـوراء حتـى تستنـد على الحائـط . سراويلهما حسنة الكى والقمصان ناصعة شفيفة ، وفى جيب سى خليل على الصدر يبدو مستطيل بطاقة عضوية الحزب . يشربان ويتكلمان ويتبادلان نظرات غامضة . يتقلص قلب كوثر إحساسا بريح المؤامرة لكنها تحاول أن تصرف همها .

حينما يتكلم سى خليل يكون جاداً وحاقداً رهيبا . يكشر جلد وجهه الأخضر عن لثة زرقاء وأسنان لامعه يبدو أنه يدعكها بالكربونات كل يوم . الأب يتكوم على أقصى الكنبة . عملاق له عين مغمضة والأخرى تطرف ناحية المتكلم فى حذر .

حينما يتكلم سى خليل ترتجف أهداب كوثر السمراء الطويله . أحيانا يستأثر بها القلق فتمسك طرف غديرتها من على صدرها لتلقى بها على ظهرها بأناملها الوردية الرقيقة . الدكان الآن مغلق بلا رجاء . والقمامة تكدست فى المربع الصغير الذى كان نظيفاً أمام الباب . وإذا مرت كوثر بالحارة ألقت نظرة شاردة . لكن صاحبة قالت لها ألا تعود تمر من هنا أبداً . لقد ألقوا به وراء عين الشمس حيث لايعود . لقد كان ضد الحكومة . الأم جالسة على الحصير ترقب سى رمضان صامته مهمومة شاحبة . وقلب كوثر مقبوض .

لكن سى خليل أحياناً يبتسم . يكون فمه غريب القبح ، لكن وجه كوثر يشرق حينما يطلب منها أن تسقيه . تقوم خجلى . تقف أمامه حاملة قلة الماء وعيونها السوداء رائقة بالسرور . يمد يده . تلتف أصابعه الطويلة حول أنامل البنت الممسكة بقلة الماء ، ويثبت نظراته فى عينيها . تغض بصرها وتسحب أناملها من تحت أصابعه . قلبها يرتجف فى صدرها كفرخ مبلول . ترى فى عينى سى رمضان نظرة عارفة متواطئة متآمرة . وعلى وجه الأم هلع أبيض مكتوم تعود كوثر إلى جلستها دائخة خائفة .

. .

يأتيان إلى بيتهم كل يوم . تجلس كوثر على الحصير جنب أمها مستنده على كتفها . ساقاها مطويتان متحاضنتان رائقتان كالعسل مرسومتان باعتناء . وجهها ونهداها مشوقان مرتفعان نحو سى خليل . كلماته تخيفها وتحيرها . نكاته الجنسية العارية تدغدغ حلمات أعصابها . يضحك سى رمضان . الأم صامتة ضائعة . الأب العملاق متكوم على أقصى الكنبه مستخذيا مداهناً يطرف بعين واحدة .

قالت كوثر فى نفسها ، ماذا ؟ إن على البنت أن تتزوج ، أن يكون لها رجل تخدمه وتعيش فى كنفه . والبنت لاتصنع الرجل بيدها ولا تسويه على عينها . وكل واحد فيه عيب . ومن عيَّبَ الرجال لم يجد أحداً . والدكان لن يعود ويفتح أبوابه أبداً .

ساعتها كانت الغرفة خالية والقلب تعمره الوساوس . وهى كانت واقفة أمام المنضدة التى فى الركن تصنع لنفسها شايا . الماء فى الأبريق يئز وموقد الكيروسين يطن . أنى لم تحس به داخلا . كان وحده . لف ساعديه حول خصرها الرقيق . ألقت بكتفها الدقيقتين فى رحبة صدره . أراحت كل هواجسها . ثم استدارت له وألقت بنفسها عليه . نهداها حران طريان يناماان على عظام قفصه الصدرى . ضمها إليه بشده . حملها يمشى بها وئيداً ناحية السرير . كانت فرحة ، عيناها مليئتان حباً . قالت له :

ــ تتزوجنى ...؟

تراخت قبضته على جسمها شهق مذهولا :

ــ أتزوجك .. أنا ؟

قالت له رقيقة عذبه :

ــ نعم .. أحبك طول عمرى ــ أخدمك بعينى !

تركها تماما ووقف قبالها شامخاً بأنفه . عدل ثيابه . تأكد من بطاقة الحزب فى جيب قميصه . كلمها حاقدا رهيبا :

ــ ألا تعرفين من أنت ... ومن أنا ؟

وغامت ملامحه بسحابه إشمئزاز قاتمة . حينئذً أنشبت كوثر أظافرها فى وجهه . إنبثق الدم من سحجات الأظافر . صرخ وتخبط متطوحاً فى الغرفة حتى وجد الباب إنطلق خارجاً يجرى كالمطارد وهو يصرخ وكوثر تشيعه بأحدث ماعرف الشارع من شتائم . لكن ياللأسف . إن الشاى كان قد إندلق على الأرض .

أكداس الوجوه المبقعة الشاحبة فى الشبابيك . أكداس الناس على أبواب البيوت .

كوثر تمشى حزينه ناحية الدكان . إنه مغلق بالشمع الأحمر وأمام بابه تتراكم القمامة والناس حذروها ألا تمر من أمامه لكنها تمشى إلى هناك لاتلوى على شيء .

كوثر أيها الحلم الرائع . حلم الرؤوس الدائخة من سخونة السقوف . تمشين على العيون المريضة . تمشين على القلوب المقهورة . لماذا أنت حزينة . ماذا يهم ماثمنه قرش من الشاى .

● الشرطى

سى حسن الشرطى . دركه فى العجوزه . الشوارع هناك هادئة . العمائر شاهقة . وحينما يطيرُ الهواء ستائر الشبابيك المفهافة ، فان أضواء متلألئة تسقط على أشياء صنعت كلها من الكريستال والمخمل .

هناك يسود سكون غريب ، يتدفق فى أوردته وشرايينه طراد جنسى عنيف . يقف حسن فى ركن معتم . يتلفت وقلبه يخفق بعنف . تمرق العربات مارة به بلا صوت . لا هدير للمحرك ولا دخان أسود كثيف يأتى من الذنب . عربات تمرق لينة على الأرض كالأفاعى . فى داخل العربات رجال ونساء ، ضحكات خشنة جشاء وأخرى ناعمةَ الجرس وربما لهاث مبهور وصرخات صغيرة . حسن فى ركنه المعتم يتحسس غدارته البارده . لايكاد يشيع بناظريه عربة مارقة ماضية حتى تسقط نظراته على أخرى آتية على البعد متسللة .

وقع الخطى هنا غريب محاذر يحاول أن يتكتم خفق النعال على الأسفلت . الأشباح تقطع دوائرَ الضوء ثم تندفع إلى عتامة الأركان . رجال يلاحقون نساء . نساءٌ يقتدن رجالا بمقاود غير مرئيه وتجرين لاهثات مرتجفات الخصل حسن فى الركن يرقب مبهوراً . يتسمع . تتضور كل خلية فى جسده حنينا . الصرخة لها لون

خاص ، جرس خاص وطعم خاص . ليست مذعورة مستغيثه ، بل طاغية ساخطة مغناجة . يسرع حسن خفيف الخُطَى ـــ هو الآخر ـــ متجنبا دوائر الضوء موغلاً فى الزوايا العتمه . وجدهما هناك . نظر لهما مبتسما فى ود . الرجل جاوبه بوجه مشحون بالأزدراء والقرف . والبنت صاحت بعصبية وتدلل :

ـــ ياشاويش ..!

تحسس حسن بعينيه الشفتين والخدين وكحل العينين وقمتي الثديين ينحسر عنهما طوق الثوب . تسللت إلى المشهد فجأة عربة أجرة دلف إليها الرجل والمرأة وحسن مذهول جامد فى مكانه . يغزه فى باطف كفه أظفر طويل ويجد فى يده جنيها . ورقة لها رائحة خاصة يقبض عليها بشده .

فى ذلك اليوم بالذات حينما إستدبر حسن الشارع الكبير ملقيا بنفسه فى عتامة الحارة إنقض عليه الحزن من كل ركن حتى كاد يبكى . ضلوعه تئن حنينا للوضاءة . الكريستال والمخمل . ذلك العبير . دوائر الضوء والعتامة . الصرخات والضحكات الوسوسات فى الأركان . لكن لاجدوى . بلا رجاء . مشى فى الحارة يخوض القمامة والروائح النتنة تخنقه .

كل صباح حينما يعود من خدمته الليلية ترسل له جارته أم آمال أختها الكبرى تحمل له طعام الأفطار . البنت متوردة الخدين مكحولة العينين قوامها ملفوف فى ردائها من اللينوه المشجر الخفيف الذى يشف عن سروال ومشد الثديين . البنت تنظر لحسن وتطرف فى تدلل :

ـــ الفطور ياسى حسن !

ثدياها نافران من طوق الثوب ، أبيضان ناصعان بطريقة خاصة . أغمض حسن عينيه . ثم فتحهما مرة أخرى ، البنت تكلمه :

ــ هنيئاً لمن أخذ عقلك ياسى حسن !

قلب حسن ينتفض فى صدره . هذه البنت لاتمت إلى هذا المكان . ترى هل تغزه الآن بأظافرها الطويلة فى باطن كفه ؟ تكلم متحشرجا كأنما يأتى صوته من جب سحيق :

ــ ضعى الطعام تحت السرير .. لا رغبة عندى فى الأكل !

إنحنت البنت . زحفت على أربع . ياله من وضع . بسقط حسن على ركبتيه خلفها . أحاط خصرها بكفيه . هبت واقفه . هب واقفاً هو الآخر . يقفان متقابلين . عيناها مرعوبتان. أرادت أن تفر أمسك بها . أرادت أن تصرخ أغلق فمها ببسطة كفه . حينما إحتوى طراوة جسدها فى يديه إكتسحته رغبة عارمة فى السحق . إبتسم وهو يضغط بابهاميه على قصبتها الهوائية حتى إنهارت متكومة على الحصير المفروش على الأرض .

من مرقده على السرير رآها متمددة على الحصير . الثوب منحسر عن فخذها . مكتنزة لكن وجهها غريب فى عتامة الغرفة . النهار يتقدم والشمس تصعد إلى السماء تصب على السقوف الأسمنتية ناراً . يسخن السقف فى غرفة حسن ويقترب من رأسه المطروح على وسادة السرير . جسده ينضح بالعرق وخياله يختلط بالبشاعة. خنفساءً تدب متمهلة مخيفة المنظرَ . تزحف القشعريرة على جسم الشرطى . أين يخفى الجثه .

لكن منديل رأس القتيلة الأحمر كان قد طار من شباك غرفة الشرطى . طار . حلق عاليا . أزواج العيون فى الشبابيك خائفة . والمنديل حط على الأرض . أخذته كوثر ، تأملته شمته ، عرفت الجناية وأطلقت صراخاً عاليا . وحينما قبضوا على حسن بكى كطفل .

لماذا أنت مقهورة ياكوثر وشاحبة كالموتى . لايكون سوى المكتوب ياكوثر ، لايكون سوى المكتوب .

● رمضان الفتك .

يومها مشى حموه إليه وهو جالس مع ثلة أصحابة يلعب الورق فى المقهى . هتف به رافعاً صوته فوق ضجة اللعب واللغط والمذياع .

ــ تعالى إشرب القهوة عندى ياولد يافتك ..!

حدث فى الضجة فجوة مساحتها شعرة فاتت على كل قلب إلا قلب رمضان . حمىٌّ اللعب وحميا الشباب وطبع يرى فى التردد معنى العدم ، كل هذا دفع الفتك لأن يهتف دون أن يلحظ أحد تردده :
ــ تحصل لى البركة يامنصور أفندى ..!

فى غرفة الجلوس عند منصور أفندى لحظ رمضان بطاقة المدير على المنضدة أمامه . لم يمد يده ليأخذها قبل أن يعرف الشروط . رفع عينيه إلى الباب فاذا حسنية داخلة تحمل صينية القهوة . كان هذا هو الشرط الأول إذن ، تفرض عليه زوجة دون مشيئته . لكن لاسبيل للتراجع . سأل منصور أفندى بأدب :

ـــ الأنسة حسنية مخطوبة أو متزوجة ..؟

والرجل قال :

ـــ البنت فى إنتظار العدل ...!

عُيِّنَ رمضان سائقا بشركة المقاولات . يسوق شاحنة محملة بالأسمنت إلى مواقع العمل فى مشروع الصرف المغطى . هنـاك ينتظره الزبائن يبيع لهم حمولة الشاحنة . مراقب البناء فى الموقع يوقع بالاستلام ويجعل نصف خلطة المسلح من التراب وينال نسبة من ثمن البيع . يحصل رمضان على حقه ويسلم الباقى لحميه عضو الحزب وسائق المدير ونائبه فى مثل هذه الأمور .

كان هذا هو الشرط الثانى إذن بعد أن تزوج رمضان حسنيه . وضع يدة على رزمة الجنيهات فى جيبه ومضى يخوض أكوام القمامة فى الشارع ويحيى الناس الجالسين أمام أبواب البيوت . سيجد حميه منتظرا على المقهى فى الشارع الكبير . سيناوله الرزمة وهذا يضعها فى جيبه وينفث دخان سيجارته ويواصل كلامه ، على وجهه التكبر والتقزز والقرف . رمضان تقلب أمعاءه رائحة القمامة . شيعته حسنية حتى باب البيت بذات الوجه المتكبر المتقزز القرفان . تلك الصفراء المطلية الشفتين والأظافر ، ماكان ليتزوج مثلها . إنه الفتك تعرفه الدنيا كلها . ماكان ليتزوج مثل هذه الصفراء أو يعمل من الباطن عند مثل أبيها ، لكنه زمن نذل . وهما يمسكانه من عرق رقبته بقبضة من حديد حتى مايستطيع أن يلتفت إلا إذا أرخيا له القبضة .

سيقلب منصور يوماً . قلبه أسود من الغل . سيقلبه ويدوسه بحذائه ويأخذ الأمر كله فى يده . إنه الفتك يعرف نفسه وتعرفه الدنيا . سيلقى بالمرأة الصفراء من

النافذة ووراءها حُق البودرة والهدوم النايلون ويكون مرة أخرى سيد نفسه وسيد بيته . لايعرف كيف يتم هذا كله ، لكنه حالف ولن يرجع عن عزمه .

أخذ منصور رزمة الأوراق المالية وضعها فى جيبة دون أن يعيرو إلتفاته . فقط أشار لصبى المقهى أن يحضر شايا لزوج إبنته . ورمضان لوح بيده رافضاً وشاكراً وحموه لم يكرر العزومة . كيف تكون الأماسى فى القهوة دون الفتك ، دون صيحاته وخبطه بالورق على خشب النضد أمامه . لكنه يشتاق إلى أم كوثر . يجلس على الكنبه وهى على الحصير عند أقدامه مرتجفة مذعورة العينين . إن هذا يغسل عن قلبه مذلة النهار بين زوجته وحميه . تلفت حوله مستئذناً من رفاق المقهى . يعرف أن خليل لن يأتى معه بعد أن خمشته كوثر أسالت دماء وجهه . دارى ضحكته وهو يرى خليل يتجنب النظر إليه .

هذه القطة الناعمة الصغيرة كوثر . سترقد أمها تحته يوما مفرجة الساقين تتأوه من اللذه والوجع على السرير النظيف الملاءة وكوثر جالسة على الكنبه هالعة الوجه من الخوف والاثارة . سيكون ذلك يوماً . وحينما يشبع من الأم ستسقط فى حجره البنت . وسيخرج يوماً من الشقة وفى يديه سروالى البنت والأم يلقى بهما فى وجوه هؤلاء الجالسين أمام البيوت ينظرون فى عجز وبلاهة وحقد .

أسرع الفتك الى بيت أم كوثر . الوقت أول المساء ولمبات الكهرباء على أبواب البيوت تزداد كل لحظة إزدهاء . دفع الباب الخارجى دخل إلى الطرقة الصغيرة أمام غرفة المسكن الوحيدة أم كوثر جالسة على الكنبه وحدها . أغلق رمضان باب الغرفة وأطفأ النور وحمل المرأة إلى السرير . الأمر أسهل مما تصور وأروع مما رأى فى كل الأحلام . وفجأة سمعت ضجة خافته وكاد رمضان يشل من الفزع .

صوت باب المسكن يفتح . قفز رمضان من السرير واقفا وسط الغرفة . جلست

الأم فى السرير تشد قميصها على فخذيها . أضاءت كوثر النور لترى وجهين شوههما الفزع . إرتمى رمضان على الكنبة يبكى كالمرأة والأم قفزت تقبل رجل كوثر وتُعْوِلْ كحيوان يذبح :

ــ إسترى عرض أمك ياكوثر ..!

الكل خدعوك ياكوثر .. لم يقل لك أحد أن الدنيا هكذا قبيحه .. لم يقل لك أحد .

● خاتمه

أمى تدور ورائى حاملة حذائى ورباط رقبتى ، وأنا أمام المرآة أبكى نفسى ، شحوبى وموات وجهى . عبارات أمى كعديد الندابات ، تعلقنى كل يوم على الصليب وتدق أطرافى :

ــ ياولدى ماتت كوثر .. ذهبت إلى هناك ورأيت أمها تبكى دماً ..!
إذن فماذا ؟ يصب القار فى روحى حتى تتشبع به كل أخيلتى وتسود الرؤى . أمى تواصل عديدها :

ــ ياولدى أهرقت الكيروسين على ثيابها وأشعلت عود الكبريت .. دخل عليها أبوها والنار طائرة فيها .. لفها فى حرام الصوف وبرك عليها .. لكن النار كانت تأكل فيها من داخل الحرام ..!

آه .. يخنقنى الحزن حتى ماأرى .. لطخت أعلام كل الذكريات بالحداد .. وأمى ترص سطور البكائية الأليمة :

ــ بقت أمها جنب سريرها الليل كله وفى الصباح ماتت .. فى المستشفى ..!

وأنا سوف أجرب موتها كل يوم وأحضر جنازتها كل مصرع حلم من أحلامى ، أقرأ عنها سورة الأحد وأتلو قداس الرحمة . وأمى قدر وجيعتى المكتوب :

ــ يسقط لحم وجهها المحترق ياولدى .. وأمها جنبها .. كانت البنية حلوة .. تسأل أمها وهى تحتضر .. هل أحرقت النار وجهى ياأمى ؟ لاتدعيه يتأملنى إذا أتى لزيارتى ياأمى ! خوفى أن أبدو قبيحة فى عينه ياأمى .. كانت تحب الأعرج صاحب الدكان ياولدى .. كان طيبا .. سجنته الحكومة ياولدى ..! الأب أراد أن يزوج كوثر لرمضان الفتك .. ظل لحم وجهها يتساقط حتى ماتت .. كانت عروساً كالقمر ..!

لايرى أحد داخلى الرجراج كمح البيضة . ذلك بأن لى عوينات مذهبة الاطار ، وإذا أتكلم أرص الكلام باعتناء . ولذلك فأنا مدعوة للشهادة . مشيت رصيناً ثابتاً منهاراً . إننى لأذكر أنها كانت إذا إبتسمت لى يولد الفرح فى قلبى .

أنا مدعوة للشهادة . صعدت السلم العريض إلى المبنى القديم ثابت الخطى ، مائت فى داخلى . فى كل ركن يقف شرطى مسلح . وفى كل زاوية يتلصص بصاص بعينين ريان ماتحت السطوح الخارجية . بهوادة تسللت متفادياً النظرات النافذة وصعدت سلماً يقطع النفس . جلست على الدكة أمام المحقق . أطرافى متثلجه . أكاد أهوى وترتطم جبهتى بحرف المكتب أمام المحقق . لكنه إبتسم لى . شجعنى . وأنا قلت له كلاماً كثيراً هادئاً .

عُرض المتهمون . فى أيدى مخبرين يمارسون عملهم باقتدار وعجب . يعجنون

الأولاد عجناً . يسحقونهم فى الأرض بكعوب الأحذية . الأولاد يولولون كالنساء . آهات وحشرجات كأنهم مشرفون على الموت . لكنهم لم يسلموا سر قلوبهم . وأخيراً جاءوا به . الأعرج صاحب الدكان . ياإلهى كيف استطاعت عيناه أن تستأثرا باهتمامى حتى ماأرى جراحه . فى العينين كوثر . كوثر فى العينين كأجمل ماكانت فى كل أيامها على ظهر الدنيا .

قمت واقفا . مشيت خارجاً . المبنى قديم يهتز تحت الخطو . نزلت السلم وحيداً لكننى عارف متيقن . عيال مباركون . عيال مباركون .
كوثر أيتها الحلم . من أجلك كتبت

برلين الغربية ١٩٨٢/٣/٥

عبد الحكيم قاسم

عن البنات

عبد الحكيم قاسم

عن البنات أحكى ، عن الشعر فى داخلى ، عن الرؤى
الضبابية المرتجفة فى أعماقى ، عن الشوق واللهفة والضحك
والحزن والجنون ، عن الحبور ، عن فساتين طائرة الذيول ،
عن شفاه تواقة ، عن عيون مفعمه بالجسارة الهشة والغزل ،
عن الوحدة ، عن الأرق فى صميم الليل الناعس .

فى طريق عودتنا إلى قريتنا من المدرسة فى المدينة نزلنا من قطار لننتظر على المحطة قطاراً آخر . الانتظار طويل . تحدرنا من على الرصيف نازلين نقصد الحقول . مشينا معاً إلى الجميزة العجوز . كانت تضحك مغرقة فى الضحك . تدارى وجهها بكتابها المفتوح فى يدها وتضحك . حقيبتها تتطوح فى يدها الأخرى . حذاؤها الأسود المترب وجوربها القصير . ساقاها بين الجورب ونهاية الثوب عاريان . خطوها رشيق متوثب .

الجميزة تحتها مصلًى . سور طينى يرتفع مقدار شبر ويدور حول فرش من القش . أرجحت هى حقيبتها فى يدها إلى الأمام وإلى الخلف ثم أفلتتها . طار الحقيبة إستقرت وسط فرش القش . وهى ضحكت ملقية برأسها إلى الخلف وشعرها

ساقط وراء ظهرها وثدياها قبتان صغيرتان تحت قماش ثوبها المدرسي . خفت أن تسمع دقات قلبي . يهزني هدير الدم في عروقي . إندفعت السخونة إلى وجهي .

لكنها كانت أمامي تملأ الدنيا تقافزا وضحكا . الكتاب مفتوح وأصبعها يشير على الصفحة . أنا جالس على السور القصير الغليظ . جذور الجميزة تمشي تحتنا جسيمة نافرة . على وجه الترعة الساكن البني في ظل الجميزة تنتشر دنانير ذهبية من ضوء الشمس . فروع الجميزة الثقال فوقنا محملات بالورق ، أوراق زرقاء متربه متجعدة الحواف . ثمة خيوط عنكبوت لاترى ، لكنني أحسها بالغة الرهافة ، حريرية ناعمه ، طائره باحثة ، تلصق بالرقبة أو بالوجه أو بظاهر اليد .

تقفز على رجل واحدة . تدفع بسن حذائها شقفة على الأرض مهتمة غاية الاهتمام . وجهها قاني الاحمرار . أصبعها على صفحة الكتاب . صحت بها غاضبا :

ـــ كفى لعباً ..!

كركرت ضحكا بلا نهاية . تلوت من السرور مثل سمكة . ثم ألقت بنفسها إلى جواري لابدة في جنبي . أشرت بأصبعي على السطر :

ـــ إقرئي ..!

نظرت إلى متوسلة تفرش كفيها على صفحتي الكتاب الموضوع على ركبتي . أناملها وردية . هتفت :

ـــ إشرح لي ..!

صوتها طفلى متدلل . وجنتاها متوهجتان . عيناها مفعمتان شقاوة . قلت لها :

ــ هات مبتدأً وخبراً .. !

إنتصبت واقفة أمامى جادة . سارت رائحة غادية متفكرة وكفاها متحاضنتان خلف ظهرها . عادت وقفت أمامي تغالب الضحك . ثناياها مغروزه فى شفتها السفلى . ترفع حاجبيها تدللاً ومكراً . تقول :

ــ لا أستطيع ..!

أعرف كيف يخفق قلبها تحت ثديها الأيسر . حجرات القلب الأربع ، الصمامات وتدفق الدم من الأوردة والى الشرايين . درست ذلك . قلت لها بأناة وحكمة :

ــ قولى مثلا .. حمدى ضخم ..!

دهشت . سكتت مبهوته . روعها ذلك التعبير الحقود على وجهى . تساءلت هامسة :

ــ من حمدى هذا ..؟

غرست كلماتى فى لحمها ببرود ساخر قاتل :

ــ حمدى .. هو ذلك الذى نمت فى بيته بالأمس ..!

بدأ اللون يهرب من وجهها رويداً . إرتجفت شفتاها وهى تهمس :

ــ لاشيء من هذا .. إنما قالت لى ماما إحملى هذا الثوب إلى إمرأة خالك فى المدينة واقضى الليلة عندها تستريحين من السفر يوما .. نمت مع إمرأة خالى فى السرير .. هو كان فى الغرفة الأخرى .. لاشأن لى به .. حتى لم أتبادل معه كلمة .. لم تكن هناك مناسبة ..!

كان وجهها قد صار أبيض شمعيا مثل وجوه الموتى وتهدلت خطوط جسمها مثل ثوب قديم . مالت تناولت حقيبتها . الكتاب مغلق تضم عليه يدها الأخرى . تركتنى وسارت دون أن تنظر ناحيتى . تكور الندم فى حلقى يكاد يخنقنى . لحقت بها :

ــ من فضلك ..!

لم ترد علىّ . بقيت سائرة خطواتها ثقيلة وقدماها يحفان بالأرض والحقيبة تميل بكتفها . ألححت عليها :

ــ أنا لم أقصد .. !

دموعها انهارت على وجهها . لاتنظر ناحيتى . أضم قبضتى وأفردها بعنف :

ــ أرجو أن تفهمينى ..!

عيناها كأسان من دم . المنديل متكور مبلول فى يدها . حبات العرق خضّلت منابت الشعر على جبينها .

نحن ننتظر القطار الذى سيأخذنا إلى قريتنا . رحلة العودة بعد نهار صاخب

مترب . إبتعدت عنى مختلطة بالناس الواقفين فى الانتظار . لا أستطيع أن ألحق بها وأكلمها وسط الجمع. عيناى تسرحان مع قضبان القطار إلى بعيد . لم يأت بعد . رفست بسن حذائى زلطة على الأرض طوحت بها بعيداً .

●

وضعت قلبى فى خطاب أرسلته إلى القاهرة . قلت لصديقى أن كل ماحولى أسهم تشير إلى أسفل ، وأننى أهيم وحدى فى الليل ، وأن الظلام ، ظلام الليل الريفى أسود ثقيل مسيطر تئن تحته الجنادب وأنفاس النائمين والرؤى المريضة الشائهة المجنونة

●

كانت آتية تواً من عند الكوافير يسبقها عطرها ، عطر مصرى رخيص . وجهها لامع بالدهان وشفتاها قرمزيتان بالطلاء . عيناها آيتان ، بنيتان مكحولتان فى وجهها الأبيض الوردى ، مثل عينى دمية غالية .

هى وصديقتها ملأتا بيتنا صخباً . تسلمان ، تسألان ، تضحكان ، . حريصة على ألا تتلف تسريحة شعرها تهز رأسها فى خيلاء وفرح وخصلاتها الذهبية ترتجف فى إتساق .

أنا على سريرى قبالة باب غرفتى المفتوح متمدد فى العتمة أتفرج على المشهد فى الصالة كأنها خشبة مسرح . أعرف أنها لن تبادر بالسؤال عنى . ساقى ممدودة على وسادة لا أجرؤ على تحريكها وإلا إنطلق ذلك الألم المتكور فوق الابهام جحيما يتأجج فى الساق كلها .

الدمل فى إبهام رجلى متورم ملىء بالصديد . نبض الألم فى جسمى منتظم الايقاع بلا تردد . أنا دائخ محموم . هزة واحدة وينطلق الألم كنباح كلاب مسعورة ويتصبب جبينى عرقا وتكاد تزهق روحى .

أعرف أنها لن تبادر بالسؤال عنى . أننى محموم ملىء بالقنوط والتقزز والغثيان . لكنها سوف تسأل . كل من حولها يتوقعون منها ذلك ، يحاصرونها ويدفعونها إليه . هاهى :

ــ أين هو ..؟

قالوا لها :

ــ معتكف .. مريض .. !

تصورت أن العيون تبتسم لها وأنها تمضى إلى غرفتى تدوس على الابتسامات الماكرة . جاءت إلى تحسست جبينى . كفها بارد ندى بالعرق . جئن كلهن وراءها ، وقفن حولها يحطنها بعيون مبتسمة . قالت :

ــ جبينه دافىء قليلا ..!

إتسعت الابتسامات حولها . رفعت كفها بسرعة وبدأت تمسحها بمنديلها . أرقب العيون تحاصرها ونبرتها تتوتر قليلا . كلمتنى :

ــ لكن الأمر ليس خطيراً .. أنت فقط تتدلل ..!

ثم هبت واقفة وإنطلقت خارجة وهى تهتف :

ــ فلنتركه وحده ..!

وخرجن جميعا إلى الغرفة الأخرى . أغمضت عينى على نبض الألم فى جسمى . يأتيني لغطهن من الغرفة الأخرى . هى أعلاهن صوتاً ، حادة ضائقة ، تتكلم جملاً قصيرة عصبية واضحة حاسمة .

بدأت المسألة بينى وبينها ذات مساء فى عرض مسرحى . أضواء وحبور ونساء معطرات معنيات بوجوههن . حينما أطفئت أضواء القاعة تسللت يدى إلى ماتحت بلوزتها . تحسست نعومة قميصها وطراوة لحمها . غرست أظفرها فى يدى تذودنى وهى تتنفس تنفساً سريعاً مسموعاً . وحينما زارتنى للمرة الأولى إصطنعت رقة متناهية ورجوتها أن ترتب مكتبى . فعلت هذا باهتمام وأمومة . تفكرت وأنا سائر إلى عملى فى الصباح أنها عذبة وجميلة العينين .

لكننى الآن دائخ فاتر محموم . لغطهن يأتينى من الغرفة الأخرى . إقترحت واحدة أن يذهبن لزيارة صديقة . أما هى فأعلنت فى جملة قصيرة حاسمة أنها ستبقى إلى أن يعدن . حينما إنصفق الباب وراءهن حل الصمت . أخذت هى كتابا وجلست على كنبة فى الصالة تقرأ . من مكمن أتأمل ساقيها بيضاوين جميلتين وحذاؤها جديد رخيص . فجأة قامت أقبلت علىَّ . وضعت كفها على جبينى :

ــ مازلت دافئاً ..!

أمسكت يدها ، شددت قبضتى عليها ، جذبتها ، دسستها فى ثيابى :

ـــ من هنا حرارتى أعلى ..!

جذبت يدها فزعة . قالت مرتبكة كأنما تلقى محفوظاً أمام مدرس فى الفصل :

ـــ لايجس أحد حرارة المريض من هنا ..!

إنطلق نباح الألم المسعور فى جسدى . إنكفأت على بطنى أعض الوسادة بأسنانى . ساكن تماما أنتظر تراجع دفقة الألم . مددت يدى أدسها بين ساقيها :

ـــ أجس حرارتك ..؟

نحت يدى بقوه :
ـــ أنا لست مريضة ..!

مددت يدى إلى صدرها أدخلها فى طوق ثوبها . أمسكت بمعصمى تمنعنى . قبضت بشدة على ياقة ثوبها وجذبتها نحوى لأقبلها . إذا إقترب وجهها منى تقززت من طلائها ومن عطرها . قبلتها فى رقبتها دون إشتهاء وهى تتنفس فحيحاً . أطلقتها وهى زفرت غاضبة :

ـــ ماهذا ..؟
قلت فى برود :
ـــ هل ضايقك هذا ..؟
ـــ طبعاً .. !
ـــ إذن إغربى عن وجهى ..!

ـــ سأمضى ولن أعود مرة أخرى !
ـــ أحسن ..!

قامت إلى أريكتها وأخذت الكتاب فى يدها . أكاد أبكى من ألمى . أمزق الملاء والوسادة بيدى وأسنانى . أكاد أتقيأ أمعائى من قرفى منها وعلمى أن تهديدها فارغ وأنها ستأتى مرة أخرى . جاءت . وقفت جنب سريرى ساكنة :

ـــ مازلت دافئا ..؟

لم أستخلص من رنة صوتها أى معنى . كدت أصرخ سخطا عليها . قلت لها ببرود :

ـــ تحسسى بنفسك ..!

وضعت كفها على جبينى . قلت بنفس البرود :

ـــ ليس من هنا ..!

قالت بصوت عال كأنما تنهى إلىَّ معلومة خطيرة :
ـــ لايجس أحد أبداً حرارة المريض من هنا ..!

إنفتح الباب ودخلت الباقيات . إمتلأت الصالة صخباً مرة أخرى . ذهبت هى إنضمت إليهن . وحينما إستأذنت لتنصرف لم أعن باستبقائها . لم أعن بأن أواعدها . كنت واثقا أنها ستأتى من نفسها مرة أخرى . لكنها لم تأت . لم تأت بعد ذلك أبداً

●

قلت فى الخطاب الذى أرسلته لصديقى فى القاهرة أننى إنطلقت فى الشوارع كالمجنون طائراً على صخب الآلات المروع . كل آن آلهث فى مسماع التليفون صارخا . أؤكد أن المسألة لايمكن أن تكون هكذا . وأننى بذلك أفقد فرصتى ، أموت ، أختنق فى غرفة غاز فسيحة . إلتقطت أذنى من مسماع التليفون أصواتا باردة رصينة معاتبة لائمة ، متعالية متهمة . يومها عرفت أن الأمور صعبة . فلنصبر . ولنشكر الله أننا نعيش . كانت كلمات خطابى لصديقى دامعة .

●

إنطلقت العربة على الطريق الزراعى فى نهار رائق . أجلس بجوار النافذة . كل آن نلحق بشاحنة كبيرة . يدور إطارها الهائل جنب شحمة أذنى يهدر ماحقاً مثل حجر الطاحون . يقبض الرعب على قلبى حتى نتجاوز الشاحنة فأزفر مرتاحاً .

هى تجلس فى المقعد الأمامى . قصة شعرها غلامية تكشف عن رقبة جميلة طالعة مما بين الكتفين فى إتساق آسر . لكنه يجلس إلى جوارها ذلك الآخر العريض الكتفين الحليق الرقبة . إهتمامى مركز بقوة على تلك المسافة بين كتفيهما ، لو ضاقت ملليمترا واحداً فى محاولة منه للاقتراب منها ، فربما إنقطعت أنفاسى حقدا . لكن المسافة المرهقة بينهما باقية لاتنتقص من أطرافها .

راكبان شابان نحيلان أبيضان لايكفان عن الثرثرة . صوتان دافئان مستبشران . أحدهما تقلع طائرته فجر غد والآخر يصحبه مودعاً . يهمسان ضحكات عميقة

السرور . أيديهما تتحسس متاعهما القليل الرشيق . الركاب يحيطونهما بصمت كامن متسائل .

.

فى الطريق مالت بنا العربة على ظلة ممدودة . راحة قصيرة . تبعثر الركاب حول طاولات المقهى . أما هى فقد بقيت فى مكانها لاتريم . إقتربت منها ممتلئاً شهامة ونبلاً :

ــ ألا تنزلين لتستريحى قليلا ..!
ــ متشكره ..!
ــ أترغبين فى شىء أحضره لك ..!
ــ شكراً ..!
ــ عفواً ..!

.

مشيت ممتلئاً رضا عن نفسى . وجهها وعيناها واسعتان سوداوان مكحولتان . ياإلهى . وجه ممتلىء بالسلام والصفاء والوسامة مثل رسم فى كتاب قديم .

وصلنا إلى المدينة . ميدان المحطة حولنا يهدر بالصخب . كل راكب يخرج حافظته ليدفع للسائق الأجرة . فتحت هى الباب بجانبها ونزلت . من نافذة العربة بجوارى أدخلت رأسها ونظرت إلىَّ . بين أنفى وأنفها ثلاثة سنتمترات . عيناى إمتلأتا بلون وجنتيها وحلاوه عينيها . همست لى :

ــ ممكن تدفع الأجرة عنى ..؟

جفلت برأسى إلى الخلف :

ـ لأ ..!

عيناى تحدقان فى وجهها الوسيم تفتشان عن سر تلك الجسارة الباردة الواثقة :

ـ آسف جداً .. لم أحتط لمثل هذه الطوارىء .. !

إنسحبت متراجعة لم تختلج فى وجهها عضلة . أرقبها من خلف الزجاج فرحاً لأنها لم تستغفلنى وتضحك علىَّ . تقف ثابتة معتدة بنفسها أمام ذلك الشاب المسافر بالطائرة غداً . تحرك شفتيها بهمساتها . يخرج هو من حافظته ورقة نقدية كبيرة ويعطيها لها فى وداعة وحياء . دفعت أجرتها ومضت تسير فى الميدان ثابتة الخطوة . فتحت باب العربة ونزلت مسرعاً ألحق بها :

ـ إلى أين ..!
ـ شارع البحر ..!
ـ فى طريقى ..!
ـ ... !

ـ تسمحين لى أوصلك ..!
ـ شكراً ..!
ـ تلك هى عربة أجرة ..!

ـ طيب ..!

نظرت خلفى . مازالت حافظة النقود مفتوحة فى يد الشاب المسافر . ينظر فى أعقابنا بعينين عبيطتين . أخذتها من ذراعها وجريت نحو عربة الأجرة المنتظرة .

هى الآن فى حوزتى . تنفست الصعداء فى مقعدى . ضحكت لأن السائق أمامى يتحرك حركات فاقدة الاتساق أمام عجلة القيادة . الأشياء رائعة ومليئة بالفكاهة أحيانا . سوف أحيط الثمرة بكل العناية حتى تسقط بكل بهائها فى حجرى . ركبتاها عاريتان بجوارى . ليس فيهما عظام ولا خطوط متكسرة نافره ، بل إنحناء ينساب فى نعومة ورقة . ياالوسامتها وجلالها . مسافرة دون مليم فى جيبها ، وعلى وجهها كل ذلك الوقار كأنها ولىٌّ صالح لايملك إلا التوكل على الله . وشوش الضحك فى صدرى كأجنحة العصافير :

ــ تميل على بيتى عشر دقائق .. نغتسل .. نستريح قليلا .. ثم أوصلك ..!
قلت ذلك وتحفزت لخوض معركة طويلة لاقناعها بالفكرة . لكنها قالت بكل بساطة :
ــ لامانع ..!

ــ على اليمين ياأسطى ..!

أعطيت السائق أجرته . مشيت بها ندوس على العيون التى تحدق فينا . جسدان متعارفان متساوقا الخطوة كأنما ألفا السير معاً سنين طويلة .

صفقت باب مسكنى ورائى . هذه هى شقتى ، فرحتى الصغيرة القريرة . لكم هى متربة ، كأنما تأسى لأننى هجرتها طويلا . تلفتت أبحث عن الفتاة . هاهى ذى تجلس على كرسى إلى طاولة الصالة . إبتسمت لها . هاأنت ياأختى الصغيرة فى بيتى ، فى كنى ، عليك أن تتقدمى الآن إلىَّ مثل هرة صغيرة أليفة وتلبدى فى حضنى . سوف أربت عليك ، أمسح على أكتافك المستديرة ، على رقبتك ، على صدرك الطالع فى شقاوة متوثبة طفلية خجلى . سوف أضمك إلىَّ ، أريح خدك العارى على رقبتى المسكينة ، أعتصرك بين ذراعى ، أجعلك تغمضين عينيك على

إرتجافات مدهشة وتغوصين فى الزمن إلى آماد سحيقة :

ـــ ألا تغسلين وجهك ..!

نظرت إلىَّ . عيناها حلم . كل شيء ساكن . الصور المتربة على الجدران تطل فى فضول قامت متردده تنظر حولها باحثة . ياإلهى كم هى رائعة القوام :

ـــ الحمام على اليمين .. لكنك سوف تبلين ثوبك .. إنتظرى أحضر لك قيمص نوم ..! جريت إلى غرفة نومى . أخرجت من خزانة الملابس قميصا عارى الكتفين . طوحت به سقط فى يديها ضمتهما ،عليه، ونكست رأسها ساكنة . ضحكت بصوت عال من حيرتها :

ـــ يمكنك أن تدخلى الغرفة وتغلقى على نفسك ..!

ثم مشيت تجاوزتها جلست على كرسى إلى طاولة الصالة . دخلت هى الغرفة وردت الباب وراءها . حقيبة يدها أمامى على الطاولة .فتحها . ليس فيها شيء . ليس فيها شيء على الاطلاق سوى أصبع طلاء الشفاه وقلم الحواجب ومنديل متسخ . إلي جوار الحقيبة كان ثمة شيء ملفوف فى ورقة جريدة . فضضت اللفة . وجدت قميص نوم من النايلون الأحمر . دق قلبى بقوة . أى فتاة هذه . حدقت بقوة فى باب الغرفة المردود بينى وبينها . هى تخلع ثيابها وراءه الآن . قمت مندفعاً نحو الغرفة . دخلت . وجدتها عارية تماما . صفقت باب الغرفة خلفى . طوقت كتفيها العاريتين بذراعىَّ . ضممتها إلىَّ . صدرى يكاد ينفجر من دقات قلبى . تتملص منى وأنا أحكم ذراعى حول خصرها . ألهث بقوة . أمرغ وجهى فى عرى رقبتها . تدفعنى فى صدرى . ألصقها . أعضها . أحملها مندفعاً بها إلى السرير .

فجأة وبحركة بالغة العنف إنفلتت منى قافزة بعيداً مثل نمرة . وقفت فى الركن تنظر إلىَّ بعينين شرستين . رفعت أصبعها مهددة وهى متوهجة الوجه ثائرة الشعر .

ــ إذا إقتربت منى صرخت حتى يأتى الجيران ..!

أدركت أنها جادة تماما وأننى إذا اقتربت منها خطوة فانها سوف تصرخ حتما . جلست على السرير مغمضاً عينى على سعار كالجنون وأنا أهمس :

ــ طيب .. طيب ..!

أحسست بها تخرج . فتحت عينى رأيتها تسير إلى الحمام مرتدية قميص النوم الذى قدمته لها .

أراه معلقا من شريطين رفيعتين على كتفيها الرائعتين. قمت متثاقلاً إلى المطبخ أتأمل شعلة موقد الطهى . آنصت لهسيس الماء الوشيك الغليان فى إبريق الشاى . حزين مثل طِفل يسافر والداه ويتركانه وحيداً .

عدت بالشاى . وجدتها ساكنة على كرسى فى غرفة النوم . وضعت الصينية على كرسى آخر وجلست على السرير . صمتنا ورشفات الشاى المتباعدة . أنهت كوبها ووضعته بهدوء ثم رفعت إلىَّ وجها مغسولا رائع العينين وهمست :

ــ أريد أن أرتدى ثيابى ..!

شملنى حزن صوفى بعيد الغور .. قلت همساً لايكاد يسمع :

ـــ سأبقى هنا .. لاتخافى ..!

قامت متمهلة . إنحنت قليلا . تناولت ذيل قميصها . جذبته إلى أعلى . مالت خصلته من رأسها . مدت ذراعها بالقميص أراحته على مسند المقعد . إرتجف ثديها إرتجافه رقيقة من حركتها ثم سكن . فى داخلى حشرجة وانية ونحيب حارق ونهر من دموع . إتجهت إلى المشجب لتأخذ رداءها . همستْ :

ـــ إبق هكذا قليلا ..!

وقفتْ . استدارت لى . قمتُ . ركعتُ على ركبتى أمامها . نظرتْ إلىَّ بعينين جميلتين لاتطرفان . أغمضتُ عينىَّ دفنت وجهى فى طراوه بطنها محيطاً خاصرتها بساعدىَّ . هى وضعت كفيها على كتفىَّ . فتحت عينىَّ مشرعاً وجهى لأعلى . قمتا ثديها سمراوان يدور حولهما زغب رقيق . عيناى تلثمان فى وجل ، تصعدان إلى صفاء عينيها . نكستُ بصرى . أمسكتْ هى بذراعىَّ تنهضنى مثل قسيس يمنح الغفران لمسيحى مؤمن . ثم مشت إلى المشجب إرتدت ثيابها . خرجت إلى الصالة أخذت حقيبتها من على الطاولة . كذلك قميصها الملفوف فى ورقه جريدة . نظرتْ إلىَّ . هزتْ رأسها مودعة . فتحت الباب .خرجت . أغلقت وراءها برقة .

●

قلت فى خطابى لصديقى أن السرير فى الزنزانة كان صدئا شائها معوجاً ، وأن جسدى كان متقوساً بعنف ، وأن الحيطان كانت محدقة ، مهوّلة بالليل والظلام ورسوم خرافية داعرة وكلمات ملتوية الحروف ترقص رقصا همجياً وتقول أكثر الأشياء كفراً وجسارة . وأنه من بعيد كانت تأتى إلىَّ

صرخات ممتلئة رعباً وقهراً ومهانةً وعاراً . وكانت تأتى إلىّ
ضحكات جشاء كالخناجر . وكان الليل يدور بى فى
جنون . ليل أسطوانى مفرَّغ ليس له قاع . أسقط وأهوى ،
أهوى بلا نهاية . كان كابوساً مروعاً .

أنا رب هذا القطيع . هم أهلى وأقاربى . دعوتهم من القرية ليكونوا ضيوفاً علىّ فى بيتى فى المدينة . فرحون بى . يفرشون لى الاهتمام والمودة فأدوس بحذر . أنا بينهم مثل نبى صغير طيب حكيم رصين . لكنها هى كافرة بين المؤمنين . وجهها يحمر من ضحكها المكتوم . عيناها تبرقان شقاوة ولعباً . فاجأتنى جسارتها . فاجأنى نماؤها . يارب الخصب كم كبرت . الجلباب الريفى من الحرير الأسود ينسدل على إستدارة وإمتلاء مذهلين . كأنها فرس رائعة . بنت الأمس هذه . لكنهن البنات . تغمض عينيك عن الواحده ثم تفتحهما فاذا البنت قد تخلّقت إمرأة ريانة متفجرة العود . بدأت أعتاد قلة تهيبها منى . يملأ قلبى ضحكاً وجهها الطفلى وعيناها المفعمتان شقاوة .

تفرق جمعنا . إنحشرنا فى القطار المزدحم متباعدين مندسين بين أكداس الخلق . تعالت صيحاتنا من هنا وهناك حتى إطمأن كل فرد منا أنه إستعاد صلته بالقطيع . علا صوتى منبهاً ألا يحاول أحد دفع أجرة الركوب . هذا واجبى نحو ضيوفى . عارض واحد هنا وآخر هنا معارضة فرحة تحاول فقط اثبات دورى وقيادتى .

هدأ الهرج وإنتظمت سرعة القطار وسادت كتلة الراكبين سكينة متوجسة . إنصات شامل لبحات قلب القاطرة الفولاذى ذات الايقاع الحاسم المتجهم . أنا شارد . روحى تبحث فى ذلك الايقاع الساحق عن لحن ما . لحن شرس غجرى مفعم بالحزن والبسالة . عيناى منطلقتان فى تلك المهمه المظلمة خارج النافذة

تبحثان عن ضوء وحيد .

فجأة أحسست شيئا . جسد البنية مرتكن على جسدى .! إجتاحنى توتر حاد . عاصفة باردة إكتسحت كسلى وشرودى . أصبحت يقظاً كشفرة مرهفة . ماذا ..؟ هل قصدتْ هذا ..؟ هل هذا ممكن ..؟ أرجل حشريه ميكروسكوبية تمشى فى جسدى تدب دبيباً مصمماً لايرحم . أى خطأ فى الحساب يسقطنى فى الفضيحة ، يمرغنى فى الوحل ، يجللنى بالعار .

وصلنا . الركاب يدبون طابوراً بين صفى المقاعد نازلين . هى أمامى . وضعت يدى على قمتى كتفيها . إقتربت منها حذراً متردداً . إستعجلت ترددى دافعة حجم ردفيها ليلبد فى حضن فخذىَّ بلا أدنى خطأ فى التصويب . تراجعت مرعوباً أرتعد بعنف يكاد قلبى يقف عن الخفقان . لو سبقت سياق إستجاباتها ملليمترا واحداً فاننى أسقط فى هاوية سحيقة .

طول الليل لم أنم . يقظ العينين فى الظلام الحالك . من بين جميع النائمين يصلنى صون أنفاسها وتقلبها فى مرقدها . ماذا ..؟ أتقصد ذلك حقاً ..؟ هل هذا ممكن ..؟ خائف إلى النخاع ، وفرح إلى النخاع .

وطول النهار لم أفلتها . عيناى عليها . يداى عليها . ألمسها . أمسكها . أدفعها فى كل موضع . تميد . تتلوى . تقفز جارية . خفيفة ضاحكة ضحكاً مكركراً مجلجلاً من قلب لم يعرف بعد كدراً .

قد أموت موتاً حقيقيا بلا مجاز . قلبى يكاد يقف . نفسى يكاد ينقطع . لكننى سوف أعرف الآن حالاً . غير ذلك لايعنينى أمر آخر . خالست إنتباه الجميع مقامراً بكل شىء . جذبتها إندفعت نحوى مشرعة صدراً عمرة أربعة عشر ربيعاً .

كنزاً من الخصوبة . مغمضة العينين مفتوحة الفم تلمع ثناياها . تتلوى فى حضنى . تهصرصدرها فى صدرى . أقبلها تخمشنى . أسنانها تصك أسنانى . مجنونة أو مجذوبة . شفتاها . أسنانها . ريقها . فتوة جسدها .

•

ثم قفزت مبتعدة . نظرت إلىَّ مهتاجة الوجه ثائرة الشعر . زفرت زفرة عالية فرحة . طفلة وجدت كنزا . أطلقت ضحكا مكركراً صافيا طويلا . جرت تركتنى جامداً فى ركنى . أفقت بعد قليل . سويت ثيابى . مشيت أدور فى البيت ثقيل الساقين لاأعى ماحولى تماما ولا أعرف ماإذا كنت أحلم . إنفردت بها من جديد :

ــ قولى لى ..!

ــ عن ماذا ..!

ــ عن القطار .. إنك إرتكنت علىَّ ..!

ضحكت ضحكاً عالياً متواصلاً وعيناها مغمضتان شقاوة . شهقت :

ــ أنا ...؟

ثم فرت هاربة . لاحقتها ، لاأعى غيرها :

ــ قولى لى ..!

ــ عن ماذا ..!

ــ حينما قبلتك .. غضبتِ ؟

صرخت دهشة :

ــ أنا ...؟

يارب الأشياء كلها أريد أن أعرف . أريد فقط أن أعرف . لكنها أطلقت ضحكها العالى ثم خطفت نظارتى وجرت . جريت وراءها دون تفكير . لاأستطيع اللحاق بها . أجرى أطاردها . تفلت منى كسمكة . البيت عاصف بالضحك . إنطلقت خارجة من باب الشقة . أسرعت وراءها . صعدتْ سلم البيت قفزا . قفزتُ خلفها . ضحك الناس يبتعد . دخلت غرفة الغسيل على السطوح . استدارت واجهتنى تقدمت منها لاهثا أكاد أسقط إعياءا . قبضت على ذيل ثوبها وملصته عنها . تخلصت من الثوب وعادت منتصبة أمامى عارية فارعة لاهثة متوردة . ألقيت بثوبها على الأرض . أخذت قطع الملابس المنشورة على الحبل ألقيت بها على أرض الغرفة أصنع فراشا . رأت ذلك أغرقت فى الضحك مغمضة العينين مائلة الرأس . جمدتُ متردداً . ألقت بنفسها علىَّ منحية ترددى . نزعت عنى جلبابى . إحتضنتنى عاريا إليها . تعتصر من كيانى كل مافيه من وجد .

نزلت السلم تجرى وأنا أجرى وراءها . الناس يستقبلوننا بالضحك المجلجل . هل يحتفلون بعرسنا . تجرى وأنا فى إثرها . فى الأركان نتحاضن . خلف ظهور الناس نقبِّل . نلعب . نلعب لعباً خارق الحيوية والامتاع يصهرنى ، يطهرنى ، يعيدنى إلى البهجة السليبة .

●

ومازلت أحيا . تملأالرياح قلع مركبى . فى الصباح أبتسم لطلعتى الوسيمة فى المرآة . ثم أخرج . أشرع وجهى للذعة البرودة الصبحية . يتدفق الشعر فى داخلى . العالم ملىء بالبنات . فساتين طائرة الذيول . شفاه تواقة . عيون مفعمة بالجسارة الهشة والغزل . كانت خاتمة خطابى

لصديقى فرحة .

●

برلين الغربية ٢٥/٣/١٩٨٢ عبد الحكيم قاسم

شجرة الحبّ

عبد الحكيم قاسم

● الأم

بائعة البلح . إمرأة شامخة ، أثيثة الشعر ، تكاد تدرك غدائرها عجزها . عيناها صحنا عسل ، شباكان مفتوحان على المتاهات الغريبة . وهى إمرأة لينة الصوت مبتسمة ماكرة .

يقولون إنها متاع متاح ، وأن من له زند وحيل وقلب جسور ، قادر على أن يجتنى شهدها . أما هى فانها ميادة ، تدور تنادى على بضاعتها ، تملأ القلوب بالحنين ، إذا عبق الكون بغبار فضى شفيف وإستضاء القمر وترقرق الأسى كالخزير لا منطلق له ولا مستقر ، ونامت الظلال السمراء على إخضرار الضوء فى الحارات . حينئذيسمع وقع قدميها . ومن الرؤى المنسحبة إلى أبعد الأغوار يأتى صوتها :

يامن يجيب القنانى يابلح ..
ياخد العسل منك ...!

وإذا تخلد الأشياء حولها للسكون فى غرفتها ، ويتكسر ضوء المصباح الشاحب على بلادة الجدران الطينية فى هزيم مكتوم ، تنزع عنها قميصها . تلصق على قمم

الأكتاف الناصعة الرخصة العرقانة ذوائب من دفقات الشعر الليلية السوداء .
العينان جناحان محلقان إشتياقا . الثديان ناعمان ناعسان مكدودان إنتظاراً .

أحشاؤها تنوح شوقاً .تقتم عيناها عذابا . تحلم برجال ، وجوههم مذبوحة بخطوط الدموع على صدرها ، تسقى حرقتهم من بئرها ، تخبىء مخافتهم تحت جناحها . الظلال السمراء على الحيطان تسقط هاماتها مذلة وكمداً .

حتى يتسلل ضوء الصبح من الشقوق عيوناً طفلية متلصصة خائفة . تلقى قميصها على نفسها . تقوم . تخرج إلى النهار .تعانيه إلى المساء . المساء الريفى فى قيعان حارات مفروشة بمربعات الضوء القمرى الأخضر . على واجهات دور طينية تتهدل عليها ذوائب الحطب ، تنصت لخفقات الشبشب على تراب السكة .

تنادى على بلحها . تغنى لبلحها . تغنى أشواقها . الحنان الذى بلا حدود يعمر قلباً وذراعين رخصتين ممتلئتين .

● الولد

لم يودع قدمية أبداً صون الحذاء ، مفرطحتين غليظتين ، علمتاه السير الجسور . يسير وسط الطريق ، لايتسكع جنب الحيطان ولا يتخذ سكة مطروقة وطأتها له من قبله الأقدام .

لم يرتد طول عمره سوى جلباب وحيد مهلهل لايدارى من جسده شيئاً . لم يتعود لحمه رفه الحزن تحت طيات الثياب الثقال . جلده أسمر خشن جاسر مثل ظاهر اليد وباطن القدم .جسده لم يعرف الخجل ، أو الرجفة من اللمس ، أو التهيب

من النظرة معروض على العيون كالكلمة الوقحة العارية الجارحة الواضحة المقاطع والمقاصد .

لم يصدق أن فى الليل عفاريت . ليله لم يكن أبداً غرفة دفيئة مضاءة محكمة الإغلاق . لم يهدهده للنوم صوت حنون مرتجف بالخوف يحكى له الحكايا . كان ليله دائما عاريا شاسع الجنبات فارغا ترن فيه الأصوات كما ترن فى علبة من الصفيح ، ليله بلا مخاوف وبلا أحلام نجماته مرتجفات تحلق فى دهشة وغباء .

وكلما إجتمعت حلقة العيال فى المساء ، وإنشغلت قلوبهم بالمخاوف ، وتعذبت ملامح الوجوه وتفنجلت العيون مبهوره برؤى موهومة ، كان يجلس بينهم وحيداً ، خوفهم لايصك قلبه . يتلفت حواليه متسائلا أبله غير مصدق . ثم ينهض كاسرا إطار عزلته . يغرق فى صخب اللعب حتى يسقط العيال حوله إعياءً وهو أبقاهم عنفاً وأعلاهم صوتاً وأكثرهم توحداً . يضرب ، يشتم ، يخالف ، يجرب أكثر الأشياء خرقاً ، والعيون حوله ترمقه إنكاراً وتخوفاً ، وهو تطوقه الوحدة إلى الاختناق .

وحينما يوغل المساء يئوب العيال . يعودون الى الدور فى قيعان الحارات ، إلى غرف تضيئها مصابيح راقصة الشعل ، تملؤها أنفاس دافئة وروائح دسمه ،أو ربما منتنه زخمه . يضحك . فهو لايعرف الرجوع . داره حيث يقف يدق قدميه . وحيث يريح ظهره غرفته . وفراشه مصطبه جنب جدار فى جوف ليل شاسع نجومه خرساء لاتقول فيغمض عينيه . لايخاف ، لكنه يشتاق لو يدخل فى ركن دافىء حنون . لو يدفن وجهه فى صدر ملىء بالحب . لو يجرب الاحتضان . لو تحيطه ذراعان سمينتان تضمانه . لو كانت له أم تسخن أنفاسها على رقبته فى الليل . آه من وحشة اليتم . تنحدر دموعه سخينة .

● شجرة الحب

ـــ ماهذا ياولد ..؟
ـــ سجرة الحب ..!

الكلمة هكذا ، من غير ثلاث نقاط ، ثاقبه جاسرة غريبة . نظر العيال إلى وجه الولد مذهولين . صَعَّرَ هو خده لهم وشمخ بأنفه عليهم . تحلقوا حوله ، عيونهم معلقه بجبينه . يتدافعون يتزاحمون يريدون أن يعرفوا ، وهو قائم بينهم كتمثال معبود . هتف واحد من العيال ملهوجاً مشروخ الصوت :

ـــ وكيف ..؟

تقدم الولد إليهم برصانة . إنبعجت حلقة العيال منفسحة تجاه خطوته . أخذ التقية الصوفية الحمراء من على رأس الصغير :

ـــ هكذا ..!

كوَّر التقية فى قبضة يده اليمنى . إستل منها ثنية صغيرة بين أصبعيه . أراح مؤخرة رأس الصغير فى كفة الأيسر . أقبل على الجبين يحكه بثنية الصوف . صنع فيه سحجة مستطيلة تمتد مما بين الحاجبين صاعدة حتى منبت الشعر تتندى بسائل شفيف يميل الى الاصفرار .

وإذا كان قد إنتهى فانه طوح بالتقية إلتقطها الصغير وهو يتحسس جبينه الملتهب غير فاهم شيئا . داخ العيال بين الجبين المشجوج والولد المبتسم فى إستعلاء عيونهم مفتجلة دهشة . يسألون :

ـــ ولا شيء أكثر ..؟

وفى الصباح كانت السحجة قد طابت وصار لونها بنياً قاتما . وفى الصباح كانت جباه مشقوقه بسحجات بنية تمتد مما بين الحاجبين إلى منبت الشعر . على كل جبين شجرة حب . وجوه عالية الأنوف مجتمعه ماضية . تحلقوا فى الأماسى يتكلمون فى عذوبة القمر . أصواتهم رصينه وأحاديثهم شجية عن :

ـــ سجرة الحب ..!

الكلمة رائعة . والحب صوت ذو أصداء ، أصداء مبهمة آتية من آفاق ضبابية محاطة بالمخاوف والارتجاف . إرتجاف يود القلب ـــ من وراء الوعى ـــ أن يستعيده ، يجتره ويستطعمه .

● عن الرجال

وجوه العيال حينما نظرت نحيلة رقيقة شاحبة غضة . عيونهم واسعة دعجاء كثيفة الأهداب تملأ القلوب حنانا . لكن الجباه إذا تشق بهذه السحجات البنية ، إن الرجال إذن يرتابون ، تغيم آفاقهم بسحب الخوف .

وحينما تسخن الشمس فى الضحى ، وتتلوى البهيمتان تحت النير فى محاولات أليمة ، وسلاح المحراث يشق الثرى الهش ، والرجل من فوق كل هذا يفرقع بسوطه فى الهواء قادراً مسيطراً ...

وحينما يترقرق ضوء مصباح الكيروسين الملمع الزجاجة ساجياً حالماً متعالياً على صخب وسط الدار فى العشية وقد تحلق الجميع حول قصعة الطعام متربعين ، والأب الكبير فى الصدر كتفاه عريضتان عاليتان ممتلئتان قوة ...

وحينما تسكن كل الأشياء فى قلب الليل ، وتعبق الغرفة برائحة عرق أجساد النائمين المفروشة على ظهر الفرن ، وتتردد الأنفاس فى نظام مستسلم مريب بعيد الغور .حينئذ تترقرق فى قلب الزوج ، فى الفراغ المكبوس بالظلال رغبة كالخاطرة الحزينة . يمتلىء خوفا . تتسلل يده إلى إمرأته ، تزحف الأصابع على طراوة اللحم . لدانة ساخنة مطاوعة مبلولة مخبوءة تحت طيات تكتم خائف متأثم ...

الجباه المشقوقة بتلك السحجات البنية مما بين الحاجبين إلى منبت الشعر ، فى ضحى الشمس الباهر ، فى ضوء المصباح الساجى ، فى ظلام الغرفة العابقة برائحة عرق الأجساد ، فى كل وقت وفى كل مكان ، يخرجون من كل ركن وجوها طفلة ، يدفعونك ، يحاصرونك ماكرين عارفين قساة لايرحمون ، تبرق عيونهم جساره . يسأل الرجل متحشرجاً :

ــ ماهذا ياولد ..؟

ويأتى الردّ معاجلاً وقحاً جسوراً :

ــ سجرة الحب ..!

لم تعد لأحاديث الرجال طلاوة ولا للضحكات أصداء مجلجلة . وكثيرا مايرين الصمت على المجلس وتصّاعد على العيال مشاعر حاقدة ، مشاعر ذئبية .

● معلم الصبيان

يعصف به الغضب إلى الجنون . يحس ألما ثعبانيايتلوى فى عروقه ، سرطانا ينهش فى خلاياه . يغمض عينيه . يصر على أسنانه . يكاد يسحق قطعة الطباشير بين

أصبعيه . يلتفت إلى العيال صارخا . هؤلاء الكلاب ، إذا يستدير لهم يخرسون ، تتطلع إليه صفوف وجوههم النحيلة الشاحبة وصفوف عيونهم المفنجلة بالذعر والبراءة . يجتاحهم بالعصا يمزقهم تمزيقاً . يولولون أذلاء غارقين فى الدموع . تملؤه النشوة والارتياح وتفتر شفتاه عن بسمة مهتزة مترددة . يستدير إلى السبورة تاركاً صفوف العيال فى حراسة الخوف . لكنهم يعودون هؤلاء الكلاب إلى ذلك الهمس . مايدير لهم ظهره حتى يسمع الحركات الغريبة واللغط المكتوم .

الحقائق بالغة البساطة والجد ، وتلك الخطوط السمراء فى الخرائط المعلقة على الحيطان إنما هى أنهار وجبال ووديان . وفى تلك الناحية من الدنيا ناس ذهبيو الشعر ، عندهم قطر كهربائية مارقة وطائرات كالرعود . يشرح المعلم ويعيد الشرح ، لكن العيال لايفهمون . كلاب جرباء . يمرعون عقولهم فى أكوام السباخ . تفترس دماءهم ديدان البلهارسيا التى تتسلل إليهم من أقدامهم الحافية تماما كما هو موضح فى اللوحات المعلقة . لكنهم لايتعلمون . يلغطون خلف ظهره ويلهون بالضحكات والدسائس .

يخرج المعلم يتمشى فى العصارى وإلى جانبيه مساعداه . يلقى السلام على الناس ويرهف قرون إستشعاره يتحسس الكلمات وملامح الوجوه والنظرات فى العيون أترى يبجله الناس أن يسخرون منه ؟ بماذا يهمسون خلف ظهره ؟ ماذا يحكى العيال لأهلهم عنه ؟ يحكم جبته السابغة حول جسده ، الجبة العظيمة التى لايتخلى عنها أبدا .

يكره مساعديه ، ذلك الطويل المنحنى ذا الغليون الذى لايخرج يديه من جيبى بنطلونه أبداً ، وذلك القصير التائه النظرات الذى لاتكف شفتاه عن الارتجاف بالتسابيح . لو كان معه مدرسان أفضل لكان إستطاع أن يصنع شيئا من هذه المدرسة التى هى حظيرة قميئة قابعة وسط أكوام السباخ .

الليل الريفى ترتجف فى قيعانه الهمسات الغامضة . غرفة المعلم كئيبة الحيطان . زجاجة مصباحه مطموسة بالسناج . وقف عاريا أمام مرآة الدولاب العتيق . ساقاه رفيعتان متقوستان وكرشه كالقربة وضلوع صدره ناتئة وساعداه متدليان هزيلان . جسد حربائى . أسدل على نفسه جلباب نومه . مشى إلى سريره . أحكم اللحاف حول نفسه . يحدقَ فى ظلام الغرفة خائفاً .

● يوم غير مجيد

فى ضحى ذلك اليوم كان المعلم القمىء المتغضن الوجه يحس باحساسات مجيدة ، حينما وقف على سلم المدرسة الوسخ المتآكل وإلى جانبيه مساعداه . فى الباحة الصغيرة قدام المدرسة تحت ناظريه إمتد صفان من العيال ، رثين مهلهلين تقف وراءهما أكوام السباخ . على البعد وقف الآباء ينظرون . فى الفضاء صمت معلق متدل مثل حبل المشنقة .

نزل المعلم الدرجات القليلة متمهلاً . عصاه الطويلة فى يده . وقف بين صفى العيال . صرخ فيهم وهو يضرب الأرض بالعصا :

ــ فليخرج من الصف من على جبينه شجرة حب ..!

الصفان يتلويان فزعاً . العيال يتزاحمون . يتدافعون بلانظام . الأيدى تجتمع فى ظهر واحد لتدفعه خارج الصف . ثم واحد وواحد وواحد . تجمع المذنبون مقعين حول قدمى المعلم مرتجفين صفر الوجوه مشجوجى الجباه بسحجات إنسلخت عنها قشرتها البنيةوإنتثرت عليها رقطات بيضاء محمرة .

إرتعد جسد المعلم بغضب عارم . رفع عصاه إلى أعلى وإنهال بها على العيال يمزقهم

تمزيقا . تشق العصا الجلاليب الرقيقة عن الأجساد الطرية وتذبحها ذبحاً . الصراخ يمزق الصمت المعلق . الوجوه الطفلة معجونة بالرعب والدموع .

تأمل المعلم كومة العيال ترتعش محمومة وتتخبط عمياء عند قدميه مثل كومة قطط وليدة . استجمع أنفاسه المبهورة تعباً ثم بصق عليهم إستدار صاعداً درجات سلم المدرسة القليلة الوسخة .

فى ذلك اليوم إستدبر المعلم العيال ليكتب الدرس على السبورة ولم يسمع وراءه لغطاً . لكنه كان كل حين يساوره الشك فيلتفت إليهم فجأة وبكل سرعة يريد أن يضبط التعبير المرتسم فى عيونهم المسلطة على ظهره . فى كل مرة كان يرى الرعب ملء عيونهم فتهدأ شكوكه إلى حين .

● ثمالات أحاديث

شجرات الجميز متباعدات على شطآن الترع ، أمهات قاعدات هنا منذ الأزل . شجرات الصفصاف دلين غدائرهن فى الماء عبر غبش جاثم على السطح الصقيل . الحقول إمتداد شاسع من عيدان ناعسه . على الأوراق مخمل من أوائل الندى . الكون صفاء شفيف . كومة البيوت سوداء عند الأفق ، كومة جراء ساكنة فى حضن كلبة أم .

مجالس الرجال فى الأماسى حزينة . الملافح أحكمت حول وجوه خددتها السنون . إنعكست جمرات الموقد المحتضرة على العيون الخابية . نبشت فى التراب أصابع معروقة مثل مخلب طائر نافق . ياللتراب ، مصنوع من آلاف القلوب التقية وآلاف القلوب الشقية ، التى ملأها الحزن ، والتى إستخفها السرور . لاجدوى . القدر لايرد . لاغناء فى السؤال أو الالحاح فى الجدل .

توزعت فى الحارات تحت القمر بضعة ظهور محنية ، ووخفقت نعال الآيبين على الثرى خفقاً مغرقاً فى الوحشة . فى الغرفة فتحت إمرأة وحيدة عينيها على الظلام . المساء ، الجوى وأنين الأحشاء . ليس أكثر حرقة من دموع إمرأة وحيدة

غنت البائعة نادت على بضاعتها :

يابن الطويلة يابلح ..
ياهز نخلتنا ..
خسارة فى التراب ..
ياناايح ..

الليل الريفى مائة ألف نجمة مرتجفة ، مئة ألف عين عمياء ، مائة ألف أذن مشرئبة . الطبيعة الساكنة حبلى بالهمسات والوسوسات . ربما هى جنادب تحفر بسيقانها المنشارية فى طراوة الثرى ، ربما هى فراشات غضة تثقب شرانقها أو لوزات تنشق عن نواراتها . فى هذا الليل ، ماأشوق كل المخلوقات للصبح ، للنور تزدهى فيه أوراق النوار وأجنحة الفراش .

برلين الغربية ١٩٨٢/٣/٢٤ عبد الحكيم قاسم

الموت والحياة

عبد الحكيم قاسم

● الحزن

الملجأ القديم . إلى هنا كنت أهرب من وقدة الظهيرة فى الخارج . من الرعب الكامن فى العلاقة بين شمس الظهر والأشياء . علاقة صامتة مفعمة بهزيم مزلزل . كنت حينذاك طفلا . ولقد كبرت ، لكن الرعب مازال كامناً فى مخ عظامى . أتراه تسلل إلىَّ من صمت الظهر أم من صمت الليل أم من صمت الظواهر إذا نزل الموت يمشى يبصم خطواته على حطب عرائش الدور عابراً إلى البيت المعلوم ، خفياً عن الدنيا ، مرتجف به قلب الدنيا ، يلجىء رؤوس الكلاب إلى وسائد سواعدها مرغمةً تعول إعوالاً ذليلاً .

الملجأ القديم ، الغرفة الكبيرة فى دوَّار الضيوف ...... لون بنى- قاتم يسود . منضدة رخام على بساط حائل متهرىء . نقوش الجدران ووشيش المصباح الساهر ودائرة النور المتهدبة الحواش . سرادق الدخان تكاد سجوفه تلامس رؤوس الجالسين على الأرائك الكبيرة . رجال هرمو القلوب هرمو العيون هرمو الملامح . أسرة ريفية قديمة منذورة للثكل . هاهم هنا إحتشدوا يغالبون قدر الموت . هل يحوش جهد الأيدى الخشنة المعروقة غائلة العدم .

الصمت معقود مُوَقَّعٌ على خفق خطوات أكيدة آتية من غيابة الليل فى الخارج . إنه « سليم » الذى ينتظرونه . رجل ذهل عن الدنيا ، عن الحقل والبهيمة والعيال ، ونذر نفسه لطب أوجاع الخلق ساعات الليل والنهار . يسرب وئيداً تحت ليل الحارات مأخوذا غائبا . يحقن ويقيس الحرارة وينبه إلى مواعيد الجرعات . لايغضب ولا يرضى ، إنما تكتسى ملامح وجهه بصفرة غبراء شفيفة من الغياب . لايسأل الناس عن خدمته أجراً ، ولا يستنكف أن تعطيه الناس عن هذه الخدمة أجراً . تختلط النقود بعلب الدواء فى جيبى الجلباب على جانبى قامته القصيرة حتى ليثقلان سيره الصموت .

الأرواح يخنقها كابوس الصمت . العيون ثابتة والقلوب معلقة بايقاع خطو القادم المقترب . أتراه يوقظ موات أعماقى ترجيعُ سير سليم الأكيد . هل يسعنى أن أمتلك بكائيتى وأن أجعل من حزنى عزماً . فجأة إنفجر العم الكبير فى العياط :

ــ آه ياإبراهيم ..!
زعقت فيه :
ــ اسكت ..!
سكت . أخرج منديله ومسح دموعه وقال :
ــ طيب ..!

أخرج نظارته من جيب معطفه ووضعها على أنفه . أمسك بقلمه وعكف على علب الدواء وزجاجاته يسجل الجرعات والمواعيد . أى خراب يشيع فى وجهه المجوف وفمه الغائر وملامحه القاتمة السمرة . أى خراب يحيط بنا ، يحصرنا ، يجتثنا واحداً إثر واحد .

صحت عيناى على وجه سليم واقفا فى فراغ باب الغرفه متجهة إليه أنظار

الرجال . إنه موعد الحقنة . قام عمى الأصغر وقمت . خرجنا نصحب سليما من الغرفة إلى ردهةالدوَّار إلى الشرفة . تحدرنا على الدرجات نازلين إلى الشارع قاصدين بيت المريض عمى إبراهيم .

هذا الليل يعصب على عينىَ بالعماء ، لكننى أعرف طريقى . أحمل قلبى المضىء على أرنبة أنفى مثل سمكة الأعماق السحيقة . هذا الليل يحضننى ، يكتم عينى فى طراوة صدره ، لكننى أفتح علىعتمته الرمادية شعيراتى الدمويه كى تمتص منها لبن الجسارة . تمتص صرخات الذئاب الغبر ووقع خطى لصوص المناسر القدامى وكل الأصوات الجاسرة الغريبة الذائبة فى هذه الأبدية الليلية وتودعها قلبى . حتى أكون قادرا على أن أكسر ترنيق التقى على وجوه الطهورين ، وعلى أن أبول على الأسى المقدور فى القصص القديمة . بذلك تتلبسنى روح الساحر الزنيم فيسعفنى أن أبعث الشفاء فى جسد العم المسجى .

نحن أسرة ريفية قديمة ملحدة ملعونة . حتى الذين يقيمون الصلاة منا ويقتنون، إنما هم ملاحدة إلى النخاع ومرعوبون إلى النخاع وممزقون فى داخلهم . نحن مرضى حائلو الوجوه ولون العيون .نحن نحمل فى عروقنا جرثومة غريبة تحكم علي أجسادنا بالهزال وتختم على أرواحنا بالكآبة وتعطينا خلفا ذابلاً مشوهاً . لكن هذا العم لاينبغى أن يموت ، لاينبغى أن يموت .

فاجأ عينى ضوء غرفة المريض كأنه ضحكة ساخرة . ضغط على «روحى» جمع العمات الجالسات على الحصير فى الأرض عاصبات رؤوسهن بالطرح السوداء ، يدرن بينهن حديثا غامضاً وهن مزمومات الأفواه مثل بومات على فرع . غالبت وجلة قلبى وعقدت عزمى .

قفزنا ثلاثتنا على السرير أحطنا بالجسد المسجى . إحتضنت رأسه بين كفىَّ .

مازال وجهه قاسياً غضوباً . شخيره لاهث متتابع . تحسست خشونه لحيته النابتة ودهنية بشرته المتقرحة وشفتيه الوارمتين المنفرجتين عن أسنانه المتسخة . إنحنيت عليه قبلت فمه . إنهمر نهر دموعى لكننى بقيت مسيطراً على نفسي .

عصر عمى الأصغر ساعد أخيه الغائب فى غشية المرض حتى ينفر العرق الوريد . صحت فى وجه سليم إنتباهة مفاجئة حادة . دفع السائل الدامى فى العرق . إزداد الوجه الموسَّدُ قساوة وإغبراراً . عرى من كل شبه بشرى . ماثل قطعة جافية من حجرة غشيم . صدرت عن جمع العمات ولولة . لم أعرف من منهن التى تتكلم :

ــ إنه ميت ميت ... تعذيب جسم الميت بابر الحقن حرام ..!
زعقت فيهن من مجلسى على حافة السرير .

ــ هو بخير .. أنا قلت .. حلوا عصائب الحداد السود .. ياطيور الشر ..!

شيء ما فى أرواحنا مريض . موصول بغرف الانتظار فى عيادات الأطباء . بتلك القتامة العطنة . بصمت المنتظرين الذليل وتوجعات المرض . لاننى نزوح هناك مدفوعين بالموت الكامن فى أعماقنا متكوراً كالحسرة أو القنوط ، نظاف الثياب على وجوهنا أقنعة أسى فطرى مقدور . نسلم أجسادنا لأنامل الحكماء الصفراء الشفيفة ، وتنصتهم المتوجس ، وتأملات عيونهم الزجاجية . نسلم أجسادنا لهم فى ساعات إلتذاذ حزين وخضوع خائف لناموس العرافة . ونحن نألف العقاقير . يستولى علينا سحر ألوان السوائل فى الزجاجات . تستلبنا رهافة إستدارة الأقراص ودقة تكوينها . نسيغ رداءة طعوم الأدوية ونصبر على سوء روائحها فى رغبة ملحة لتعذيب ذواتنا بحثاً عن السر الكامن فى هذه الجواهر الغريبة .

ألهذا حملته إلى طنطا وهو غائب عن الوعى مغمض العينين ؟ أكنت فريسة مسلوبة لتلك القسوة الجهمة فى وجوه الممرضين ومساعدى معامل التحليل ؟

لذلك الأرهاق الشاحب المترفع فى سحن الأطباء ؟ أهو قدر أن نحمل مرضانا إلى هذه البيوت القديمة العطنة فى المدينة الوسخة قبل أن يموتوا ؟ هل هذه الرحلة الى طنطا طقس من طقوس الموت ؟ ولولت العمات من خلفى وأنا أحمله على كتفى مسافرا به يتبعنى عمى الأصغر :

ــ تعتل رمته على كتفك وتدور به على الأبواب فى شوارع المدينة المشئومة ؟ إنه ميت فما يجدى الدواء ؟

أى طيور ليلية خفية الأسماء والهياكل ، مستورة بسجوف الظلام ، مدعوة لحتوفها ، ماضية إليها ، تنوح وتولول ، تلقى على قلبى بنذر الشؤم . نعود ثلاثتنا بعد الحقنة إلى الدوار . أمشى بين عمى الأصغر وسليم . قبضت على ساعد هذا لأصل إيقاع داخلى المضطرب بايقاع خطوه الرصين . حتى لاتخترمنى الأصوات التى تهوى فى جب الليل تاركة وراءها ذيولا مستطيلة قبل أن تغيب فى العمق السحيق . أثبت عينى على الظلمة أحاول أن أتحسس الكتلة المعتمة المقتربة .

ذلك دوّارنا . أصعد درجات السلم إلى الشرفة أحس إحساسا رائعاً بالرهبة والأمان . هذا معبدنا وقلعتنا . هذا مابناه لنا الجد الكبير . لماذا لم يشتر لنا حقولا شاسعة على رؤوسها عششا وحظائر ؟ أكان يعرف إحتياج حفدته لهذه الصدفة الهائلة ليدّرعُوا بها أن يهرق ماؤهم ويضيعوا ؟ أكان هذا الجد نبياً يعرف الآتى ؟ أم أن جرثومة عطبنا الخبيثه نشبت أولاً فى جرمه الهائل ثم إنحدرت منه بالإرث إلينا ؟

ولقد قصر الجد نسبنا فى ورقة هائلة مطوية مسطور فيها أسماء الموتى ومحفوظة فى علبة من صفيح صدىء فى ركن من أركان الدوار . تشابهت الأسماء بالأسماء . إشتبه الموت بالحياة فى قدر الثكل ، فى نبوءة نبى قديم . كان يحبس نفسه السنين الطوال فى غرفة معتمة داخلية يصوم النهار ويقوم الليل . كان كثير التنصت على داخله . أدرك ضيعتنا بين معنى الموت ومعنى الحياة .

رغم ظلام الردهة الحالك أرى . يحضرنى إحساسى القديم بالأمان إذْ كنت أهرب طفلاً من وقدة الشمس فى الخارج إلى عتامة هذه الردهة ونورها الرطيب الملوَّن بألوان زجاج الطيقان وشراعات الأبواب .

ألقيت بنفسى على الأريكة فى الغرفة الكبيرة . سار عمى الأصغر وسليم الهوينى كلٌ إلى مجلسة . إتكأت على طراوة الوسائد . أسلمت روحى للنور المدخن والوشيش . هذه الغرفة هى ملجئى القديم . هذه الأشياء التى حولى وهذى الناس هى جسوم شواهد على كل ساعات الخوف والقهر . قائمة حولى أبداً تتنفس التراب تحت قشرة غالبة من اللون الحائل .

أتتبع ذلك الاطار من الورود السائر أعلى الحيطان . أترانى أرى نقوش الجدران هذه أم أتذكرها . هل ينفذ بصرى خلال سجف الدخان إلى النقوش أم تنفذ إليها بصيرتى خلال أيام زمن طويل . أحزن الآن كما حزنت طفلا من تحول الألوان وإنمحاء الرسوم وضياع البهاء الذى كان يوماً . يفجعنى الآن كما فجعنى طفلاً سقوط البياض عن فراغات سوداء شائهة .

أتلهى بتصفح الوجوه الصغيرة فى الصور القديمة المعلقة على الحيطان . مستورة هى عن عينى بالدخان ، لكننى أعرف سيماء كل وجه وإنكسار كل نظرة . أميز عمى الكبير بين صبيان مدرسته نحيلاً رقيقاً واسع العينين تكسف بهاء صباه سحبٌ من خجل ريفى . هاهو ذا الآن جالس على الأريكة قربى هائل حجم القدمين يرتدى عديداً من الجلاليب والسراويل ومعطفاً سابقاً قديماً ويعمم رأسه بشتى أنواع الخرق . منحن على الموقد الموضوع على منضدة الرخام يصنع القهوة بانصراف شديد وأناة تامة ويناولنى فنجالا أستطعم مرارته وسكره . أحب ذلك الأب الكبير . يترقرق حبه فى قلبى مثل دمعة .

أتراه يتفكر الآن فى مثل هذه الحال ، حيث يكون هو المريض المسجىً على فراشة . فى غرفته ، وهنا يجتمع الرجال فى ضوء المصباح الساهر الطنَّان تحت سرادق الدخان وأمامهم كومة من علب الدواء وزجاجاته ، وفى قلوبهم الخوف والحسرة وعلى وجوههم الحداد ؟ لهفى عليك ياعمى . أتأمل وجهه .

وأتصفح وجوه الرجال الآخرين . ينظرون إلىَّ بعيون غاسقة . يثقل على عواتقهم يومان طويلان دون لحظة راحة أو إغفاءة نوم . يتململون فى مجالسهم . يطلقون أجسادهم من إسار الجلوس . يتكئون أو يتمددون . تنتظم الأنفاس . يتراكم الرماد مطبقاً على مقل الجمرات . يخبو فى الغرفة نبض الحضور . تضيق دائرة الضوء على المصباح الساهر ويضمحل وشيشه . تزحف العتمة من الأركان . تسود برودة الغياب .

فتحت عينى على ماحولى . خرجت من سكرة النوم الذى غرقت لحظة فى جبه السحيق . رأيت الأسطى سليم واقفا وسط الغرفة تتهدب على كتفيه شراسف الدخان المضوأة بالضوء الخابى من المصباح المحتضر . قطباً أو نبياً مرسوماً بالكلمات الحكيمة على صفحة صفراء من صفحات كتب السيرة القديمة ، يعظ ويحذر من الخطيئة . لقد صحا على موعد الحقنة التالى وهاهو ينظر إلىَّ بعينين ناطقتين بالعتاب . أحسست بمذلة الذنب حتى كدت أبكى . عدل هو ثوبه واتجه إلى الباب دون بنت شفه .همست خلفه ضارعاً .

ــ سأصحبك إلى هناك ياأسطى سليم ..!

أعرفة فهو يسمع دون أن يجيب ، وإن أجاب فهو خفيض الصوت مبهم العبارة . تبعته يمشى قصيراً وئيد الخطوة . جيباه على جانبى جلبابه منتفخان بصنوف الأدوية والمحاقن والضمادات .أحكمت شملتى مخبئاً عظامى المرتعدة فى كن

الدثار . أبقيت عينى ثابتين على القامة القصيرة المتدفعة فى خطوة رصينة أكيدة وأنا مهتاج متهدج الأنفاس . الموكب غريب الخفق تطل عليه منحنية واجهات الدور المصلوبة فى برودة هذا الليل .

إنتهينا من الحقنةوقفلنا آيبين . إيقاع خطونا كدقات ساعة فى ردهة مقفرة . نسير مثل ثاكلين فى سكة بين شواهد القبور ، نملك الوحدة والحزن والبسالة . المواجع مدفونة فى جحور مضوأة دفيئة مخبوءة تحت ركام الصمت والبرد والعتامة التى يراكمها هذا الليل . سليم يعرف هذه المواجع . ينفطر لها قلبه كأنه كلبة والدة تعوى فى داخلها وأنا أسمع هذا العواء مسلوباً لوقع خطاه إذْ يتركنى قدام السلم الصاعد إلى شرفة الدوَّار ويمضى هو إلى مرضى آخرين ومواعيد أخرى . ظللت أرقبه مبتعداً حتى غاب عنى مائلاً مع إنحناءة الحارة . حينئذ تركت الدوَّار خلفى وأسلمت نفسى للعتامة .

رجل عمى إبراهيم مريضة بعرق النسا ، فهو لايسير هكذا ، بل هكذا . أحجل فى الليل وحدى خطواته العرجاء المشئومة وأصيح وأضحك ضحكاً يجلجل فى قلبى مكتوماً دون صوت . كان عمى إبراهيم يسير هكذا . كان الربع من كيانه ذابلاً الأرباع الثلاثة ناشطة نشاطاً معوجاً شائهاً هكذا . وأضحك ضحكاً يجلجل فى قلبى دون صوت . أزعق زعيقاً مجلجلاً صامتاً واضعاً على وجهى قناع وجهه المريض المغبر المغمض.المفرج الشفتين المتسخ الأسنان . تملأ قلبى غضبة أليمة وقهر لايوصف متمثلة لى قومته فى وجه واعظ المركز .

ذلك كان رجلا بشعاً قام يوما بين الناس يعظهم ألا يناموا مع نسائهم فى نهار رمضان والناس يسمعون صامتين أذلاء . لكن إبراهيم كسر الصمت هاتفاً :

ــ فلان فعل ..!

صرخ الواعد :

ـــ كفارة الفعل صيام ستين يوماً متتابعات .!
قابل إبراهيم صراخ الواعظ بالصراخ .

ـــ من يعمل بالفأس تحت الشمس من أجل قوت عياله لايستطيع هذا الصوم !

قال الواعظ مصراً :
ـــ فليطعم ستين مسكيناً ..!

قال إبراهيم منافحاً :

ـــ إنه فقير ..!

زفر الواعظ يائساً :

ـــ فى جهنم وبئس المصير ..!

قال إبراهيم معانداً

ـــ ألأنه خالف حكماً لايعرفه ..!
قال الواعظ مقرراً
ـــ تلك شريعة الله !
خالف إبراهيم :
ـــ تلك شريعة حاكم ظالم لايشبه الله فى شىء .!
صاح الواعظ بابراهيم :

ــ ياكافر ..!

شتمه إبراهيم :

ــ يامنافق .. تدفع لك الحكومة لتنشر الخوف واليأس بين الناس ..!

والناس يسمعون الحوار الملتهب ذاهلين .

دلفت حاجلاً إلى الزقاق الحالك . من هذه السكة كان مشواره اليومى إلى المقهى يجر ذيل ثوب يكنس الأرض وراءه لايجمعه حذر التجاسه . سرت أحجل خطواته . وضعت أقدامى فى مواطىء أقدامه . المقهى كائنة فى نهاية الزقاق . فى داخلى هزيم الأصوات . ألهث وجسدى ساخن عرقان . إستندت إلى الجدار مغمضاً عينى . إنهارت ساقاى فتهاويت جالساً جنب الحائط ومازلت أحس على وجهى قناع وجهه المتقرح المحتضر . من إغماضى أرى الشقوق فى باب المقهى واشية بضوء المصباح الساهر فى الداخل . يكبلنى عن أى حركه عجز كابوسى جاثم على جسمى وعقلى وروحى . هكذا مات كلبنا الأسود منذ سنين . اسند ظهره إلى زاوية الزريبة وأغمض عينيه وظل متصلباً يلهث حتى مات . راقبت ذلك كله مرعوباً وأنا طفل صغير . لو كان قام ماكان مات أبداً . لو كان هزم الموت مرة واحدة ماكان مات أبداً . إن عمى إبراهيم يجب أن يقوم . إنه يجب أن يقوم .

أفلت من قبضة الكابوس لاهثا مبللاً بالعرق . واصلت سيرى فى الزقاق . ألسنة من برد الليل فتشت ثيابى ولدغت جسدى الساخن كالأفاعى . أسير فى الزقاق تاركاً المقهى خلفى . إلى هذا المقهى كان يأتى كل مساء رافضاً أمسياتنا الكئيبة المضوأة بالفانوس فى ردهة الدوّار . كان يأتى إلى هنا يحشر نفسه وسط زمرة من الأوباش فى وقدة الضوء المحبوس فى فراغ الغرفة القليل . صراخ المذياع وطنين موقد الكيروسين ودخان نار القوالح ورائحة دخان السجائر والجوْزات . كان هو وسط صخب المقهى أعلى الناس صوتا وأعنفهم خبطاً بورق اللعب على الطبلية . أترى يسع زخم الحياة فى جحر المقهى أن يطغى على شحوب المرض فى غرفة رقاده ، وأن يرفد الفيض العارم هنا عروقه بالعافية والمروة ؟

أنا قبل يومين حملته على كتفى هكذا . صعدت به السلم المتآكل الدرجات فى المنزل القديم فى طنطا هكذا . هناك فى معمل التحليل عروا جسده . غرسوا فى ساعده وظهره سنون الابر . إستقطروا الدم والنخاع تتلوث منه أصابعهم . أمسكوا الأنابيب بالمساكات المعدنية . طبخوا العينات . كتبوا الملاحظات . إلتفتوا إلينا بوجوه شاحبة متورمه وعيون مائيه خلف زجاج النظارات . وأنا وعمى الأصغر تفطر قلبينا القروح فى الجسد المسجى .

أتينا بالحقن والأقراص وزجاجات الدواء . رجعنا به هكذا . تأرجحت بنا العربة القديمة الهائلة الحجم على أرض شارع دائر الناحية والسائق النحيل يهزه الأرتجاج على كرسيه . حاول رغم ذلك أن يركز بصره أمامه محيطاً عجلة القيادة بساعديه . وكان الناس على الجانبين ينظرون وأنا تصورتهم صوراً حائلة على حيطان قديمة . والمريض فى الكرسى الخلفى على حجر عمى الأصغر .

سأحفز فى ذاتى كل جرص وحذر . سأحشد فى عقلى كل يقظة وإنتباه . سأحفظ المواعيد ومقادير الجرعات . سوف أتقوس على جسده المسجى متوتر العروق راكزاً بصرى . سأقطر فى عروقه من سر هذه الجواهر الغريبة حتى يصحو . آه . تنهمر دموعى . أبكى قهراً أبيداً كالدهر .

بقيت وحدى ومن حولى ليل تعوى فى جوانبه الكلاب . أصرخ فى بئر ذاتى صراخاً مكتوماً بكلماته الأليمة .

ــ من يمت إنما يذبح ذبحاً . من يمت إنما يفنى ويندثر ويصير تراباً . لاتبحثوا عن عزاء كاذب فى الحكايات القديمة !

زحمت صدرى غضبته المروعة . حدقت فى عتامة الليل الفضية بعينيه المتقرحتين

العاريتين من الأهداب . كأنما أرى فى العتامة حولى أهل القرية جميعا ذاهبين إلى المسجد لصلاة الجمعة . كأنني أراهم يتركونه وحده خلفهم فى هذا الخواء جالسا على كومة التراب أمام باب داره ، عنيدا رافضاً أن يلحق بهم ، وحيداً وحدة مخيفه وستائر الليل الشفيفة الغبشة تنزل عليه تكاد تخفى عنى رسوم شخصه وملامح وجهه .

أمشى فى الليل متخذاً سمت الكلام وإيماءاته وأنا صموت . أقول فى داخلى أن عمى إبراهيم لاينبغى أن يموت . إنه إختار حياته هذه فقط وعاشها بكل مكنات عقله وقلبه وجسده وبصق على كل ماعداها ، بصق على كل ماينقص من توترها أو يدمث خشونتها بالخوف والمهانة . لهذا فهو لاينبغى أن يموت . إن موته لن يكوت تغيراً أو إنتقالاً بل سيكون نفوقاً كنفوق البهيمة . هذا النسر المتوحد ذو القروح ، لو كبس الصمت على مجلسه فوق كومة التراب أمام باب داره ، فان نقصاً فادحاً سوف يعتور الأشياء .

خطبت فى الليل . زعقت بكلمات مجلجلة صموت. عبأت روحى بحقده المرير . شتمت الزيف والتلفيق . قلت كل كلماته المشحونة بكهرباء غريبة . ضحكت ضحكاته الصاخبة المريرة التى جعلت الناس يبيضون خزيا لكنهم يأتون إلى مجلسه يجلسون حوله مطرقين مسلمين رخاوة أورواحهم لنصال سخريته .

كرهوه إلى النخاع لكن أحداً لم يطله بكلمة سوء . فهو لايكذب ولا يسرق لا لأنه يخاف الخطيئة ، بل لأنه يحتقر آلتى السرقة والكذب . وهو لايزنى لا لأنه غير شغوف بالنساء ، بل لأنه يأوى إلى إمرأته وهى إمرأة وسيمة عذبه تصدقه المودة والرعاية ، وهو لايصطنع لنفسه حلماً ولا وقاراً ولا زعامة ولا إنصاتاً للثرثرة والجدل ولا حكومة فى الخلافات بين الناس . إنه وحيد وحدة أليمة ، لا يحب أحداً ولا يسأل أحداً محبته . باحة داره نظيفة ، لامحراث ولا فأس ولا حبل ، لا بهيمة ولا

مخازن للمعاش ، يشترى قوت يومه بالقرش كأنه طالب علم يعش غريبا فى غرفة مأجورة .

لكنه لن يموت ، فان فى روحه شيئا شرسا شريرا موصولا بجسارة القاتلين القدامى وشيوخ مناسر اللصوص . تعيش بقاياهم إلى الآن فى القرى البعيدة رجالا هرمين يرتحل إليهم ، يجلس إليهم ، يفرح بهم كطفل ، يرتجف على حكايات أخبارهم ومساربهم تحت ظلمة الليالى السالفة القديمة .

لن يموت لان فى روحه شيئا خبيثا ملتويا شأنه يستعصى على الاستئناس أو المصالحة ، يجعله يفترض سوء النية فى كل قصد ، والغش فى كل فعل ، والنفاق فى كل ورع ، والرياء فى كل محاسنه . ويجعله يتربص بالنازلين على القرية من وُعَّاظ أو بائعين أو سحارين يطبون للأمراض والعلل ، أو متسولين أو مجاذيب أو أفندية من رجال الحكومة وعمالها يزرون معاطفهم على دخيلة نفوسهم . يثبت لهم عارفا رموز كل منهم . يسألهم ويجادلهم ويرد عليهم بحججهم يفتش جيوبهم ونواياهم ، يعريهم ، يسوطهم يطردهم خارج القرية ذلك الحارس الريفى القديم .

لن يموت لأنه فيه سرا يصله بالحياة حتى يصير جزءاً من نسقها الشامل ترفده بزخمها وعنفوانها . سر يجعله عارفا بآفات الزرع وأمراض البهائم . ما يرى عوداً يذوى أو حيواناً يتألم إلا وتتغلب تصاريف الوجع على ملامح وجهه الصخرية . ينحى الآفة عن العيدان ويبيطر البهائم ماأخطأ مرة تشخيصاً ولا خابت مرة له وصفة لن يموت ...

جريت ناحية داره أراها على البعد . جريت لاهثا وبرد الليل يسفع وجهى . أتصورنى أراه جالساً على كومة التراب أمام الباب . أتصوره يكلمنى . أتخيل شفتيه الوارمتين تتحركان حركة أليمة :

ــ أنا أحترق يابن أخي .. نار الوجع تشب فى جسمى .. نار ..!

أجرى ناحيه داره وصوته المتألم يسوطنى . شبحه قبالة عينى جالساً على كومة التراب ، أمام باب دار يتفحص قروح ساعديه ورجليه . أجرى ناحيته لاهثا . أجاوب نداءه الصامت بالصراخ الهلع المكتوم .

دفعت باب غرفته داخلا مقطوع النفس من الجرى . أقبلت عليه ممداً فى سريره . ولولت العمات وراء ظهرى :

ــ منقاره إصفَرَّ .. وعيناه جمدتا بالحق ..!

تأملت الوجه المسجى . الجفنان إنفرجا عن مقلتين عكرتين ثابتتين . على أرنبة الأنف بقعة صفراء .. آه .. تلك غاية الألم .

قبلت جبينه . الموت حالة من حالات النفس والجسد ، حالة أخرى . الموت قنوط إلى القشعريرة . إستدرت فى مجلسى على السرير أطل على جمع العمات الجالسات على الحصير فى الأرض . ترينني وهن ناكسات أبصارهن فى الحجور ، متعاليات كسحب سوداء ، ممتلئات بالحكمة الأبيدة .

منذ متى كنزن الماء لغسل الجثمان والدقيق لخبز المعزى هؤلاء العارفات بالمواعيد ومقادير الأفعال . متى يشق صراخهن الفضاء واصلاً إلى كل قلب ناعيا إليه الميت معلناً عن طقوس العدم المرعبة .

بدأ صمتهن المتقبب الأسود القاعد يسرى إلى روحى ويحزم بالفزع على قلبى . يحاصرنني بلعنة صامته كأنني ملحد نجس تسلل إلى قدس أقداس الموت .

المصباح على رف الطين فى الحائط يرمقنى بعين طفل مشدوه . إنزلقت نازلا من على السرير حذرا حتى مست قدماى الحصير . بقيت مقلة المصباح مرسومة على عينى وأنا أضرب فى ظلمة الخارج .

مددت بصرى عبر الليل وجدت عمى الأصغر واقفاً فى شرفة الدوار غائرا كأنما يبعد عنى بمسافات شاسعة . إنه ينادينى وأنا أسمع صوته متوتراً مفعماً برنة البكاء . نفس الصوت الذى سمعته متهدجاً نابعاً من حروف كلمات البرقية التى أرسلها إلى :

« عمك إبراهيم مريض وحالته خطرة واللقاء نصيب »

هكذا ينادينى دائما . هكذا يتهدج صوته دائما يرن فى سمعى وقلبى نابعاً من حروف الكلمات فى رقاع البرقيات . أخرج مسافراً إليه لا أحمل حقيبة متاع ، إنما الخبر فى جيب معطفى . رجل آخر يهوى . واحد آخر من تلك الأسرة المنذورة للعدم .

سرت ناحية الدوّار مخلفاً دار عمى إبراهيم ورائى . تتحرك شفتاى بهمهمات مبهمة . كم من الأيام مر . كم من الأيام بقى . ماجدوى السؤال . سنظل هنا نجيب على أسئلة الحزن بعيون غاسقة .

● الرؤيا

ننزل درجات السلم من الشرفة إلى الباحة أمام الدوّار . العم الكبير وعن يمينه وشماله عمى الأصغر . وأنا . موكب بال مهزوم لكنه ثابت الخطى . الوجوه نابته اللحى ذابله العيون شاحبة ، لكنها وسيمة بندوب الحزن منوَّرة بالمعرفة الأليمة قريرة باليأس إلى إنعدام الرجاء .

الصبح يولد فى قطرات الندى على أوراق كافورة الباحة ، وعلى ذوائب الحطب المدلاة من عرائش الدور ، يتشعشع على الأرض الرطبه . الصبح معتم له صوت يغزو الروح ، مبلول كأنه إمرأة مستحمة يقطر الماء من غدائرها . إيقاع مناحة النسوان يخالط الضوء الصبحى ، يمشى فى عروق الجسد إلى القلب .

مقدور أن نساق هذا الصبح إلى هذه الهزيمة الصبحية ، إلى هذا الخراب الذى انكشفت عنه ستائر الليل ، إلى هذه الغربة السحيقة التى تعمر المسافة القليلة بين مندبة النساء فى دار الميت وبين سكون الرجال فى الباحة أمام شرفة الدوّار . غربة تقصينا عن الدنيا ، تنفينا فى عقر ذواتنا مرعوبين إلى النخاع .

لكننا نجيب بالكبرياء على سؤال الموت . كبرياؤنا المخزون فى أرواحنا كالماء العطن فى الدنان القديمة . كآبتنا المعشعشة فى أجسادنا المتوحدة التى لاتتآلف . تنبو بها المضاجع فى ليالى السهاد الطويلة . تشيح الوجوه أنفه وعجزاً . تتلون العيون بالقتامة . شاردة مهاجرة إلى الرؤى الغريبة التى تفلت من الخيال ولا يدركها التحقق ، هاربة من البلولة المتخثرة فى أجساد النساء ، مرعوبة من حرقتهن المتشققة الشرقة . طهورون إلى الانقطاع نحن . نرمق مندبة النساء بعيون بيضاء لاترى .

نتمنى لو أنا حملنا جثمانه بيننا ، نداريه بفضول جلاليبنا ، نلحده فى ردهة دوارنا هاربين بموتنا وميتنا إلى عمق كتماننا ، لايرانا أحد ولا يشفق على فجيعتنا ولا يعرف نقصنا . لكنه هاهنا ستقام المعزى . سوف تكنس هذه الباحة وترش بالماء ، وتجلب الأرائك من الدور وترص صفوفاً . سوف تنصب أشباحنا كنواطير رثه ، نسير بين صفوف المعزين على وجوهنا أقنعة الأسى الفطرى المقدور . تومىء الرؤوس بتحيات عميقة ، تتحرك الشفاه بغمغمات مبهمة ، كأنما نعتذر للناس عن مسائنا الكئيب .

كان يهرب إلى المقهى من أمسياتنا هذه فى ردهة الدوار . كان يصرخ بالحقد الذى نكظمه فى بطوننا صامتين . كان يضحك مرارتنا التى نطوى عليها قلوبنا خلف شفاه مزمومة . كان يحجل هنا خطواته الشائهة ونحن ننظر إليه . كان يرقص رقصة السخط والعذاب ونحن قاعدون مكسورون عاجزون ، نعرف أنه مربوط بالعطب إلينا ، ننتظر عودته لنا ، ميتا نملكه ، نحمله إلى اللحد على عواتقنا ، نلحده فى عمق صمتنا ، نبكيه بعيون لاتدمع وقلوب لاتخفق ، نأسى عليه بوجوه مهدمة كواجهات الدور الهرمة .

لكنه مات موته الفادح الغريب . نصبت مناحة النسوان . ودفعنا إلى صبح منشور على فروع الكافوره ، ننزل إليه من سلم الشرفة إلى الباحة . أُطَلَّ علينا العم الكبير . على وجهه كبرياء جليل . ماأعظم الكبرياء على وجوه الموتى ، إنه لاسبيل إلى إنتقاصه أو هزيمته : مشينا أنا وعمى الأصغر إلى العم الكبير ، فلما صرنا قدامه رفعنا إليه وجوهنا صامتين .

إقتيدت الحمارة . ماأشد إنكسار وجهها ، كأنما خلقت مطية لجلب تصاريح دفن الموتى . أخذها الرجل بعيداً . ركبها . حرك ساقيه حركة رتيبه . بدأت الدابة تندفع على السكة بطيئة ثقيله ... وإذا ماجىء بتصريح الدفن واشترى الكفن ، فسوف يأخذ رجلان فأسيهما ويذهبان يحفران اللحد .

ــ هذا هو حال الدنيا ..!

من قلب الصبح يقبل علينا عم بكر يمشى خطوته الأكيدة المتساوقة . إيقاع سيره يرن فى قلبى جليلا مسيطراً حتى أُذْهَلُ عن مناحة النسوان . يشرع الرجل جبينه إلى الأمام . يداه فى جنبه لاتتخبطان بحثا ، إنما ترتجفان إرتجافه متوترة :

ــ سعيكم مشكور ياعم بكر ..!

يرفع إلىَّ وجهه الأعمى المترب الجبين من أثر صلاة الصبح . تنقبض ملامحه عذابا . تتقلص شفتاه عن ثنيتين تراكم على جذورهما الجير . يصافحنى بيده الريفيه الغليظة وهو يقول :

ـــ غفر الله ذنبك ..!

وأسمعه كما سمعته عمرى يترسل صوته من تحت ستائر الليل فى الهزيع الأخير مرتلا دعاء ، الفجر . دعاء نابع من قلب الليل . الليل نسيج من قلوب صغيرة متلألئة تصيخ . وأنا تحتَ ظلام الاغفاء وحبس الغرفة يحولنى الصوت إلى قطرة فى محيط لانهائى ، يحولنى إلى شيء من الأشياء الليلية ، حصاة أو ورقة شجرة مثقلة بالندى منصتة .

عم بكر يعرف مواقيت الأذان دون أن يستشير ساعة . قلبه موصول بدورة الأفلاك وآناء الليل والنهار . ينصت مخلياً بين قلبه وبين المواقيت . تنشط به الرغبة إذا إستشفت روحهُ تلك اللحظة المليئة بالترقب والتوجس ، الخافقة بالشوق للترتيل فى قلب النهار أو آخر الليل . عندئذ يمشى فى الحارة خطوته الواثقة المتهاوية حتى يدرك المسجد فيصعد لكى يؤذن .

أهى مناحة النسوان التى روعت الصبح ، أم هى لحظة فى هذا الصبح فاجعه أدركها قلب عم بكر فحملته من داره فى قاع الحارة البعيدة إلى مكاننا هذا أمام شرفة الدوار . لا أدرى ، ولاأدرى أجاء عم بكر مؤذن الجامع إلينا ليكون أول من يقوم بواجب العزاء فى رجل لم تعلم قدمه علامة على حصر الصلاة ، رجل لم يرع حرمة الأوقات ولا قداسة المواسم ، ولم يتطامن لصوت المصلين يرن فى العتامة الرطبة خلف الامام .

يقف عم بكر معنا ، لايتململ ولا يتلفت ولا يخبط فى الهواء بيديه محاولا أن يتيقن أين هو ، إنما ينتصب وسط هذا الصبح ، مخليا بينه وبين قلبه ، وعيناه المطموستان بالعمى مرهفتان شوقا أخرسا أليما . يشخب الندى من الشجرة ويعلو الصبح ، يبيض ، تتسع مقلتاه دهشه وتوجسا وإنصاتا . صبح عرى من الحياة الصبحية ، عار من فرحة الحيوات الخارجة إلى لذعة البرد من دفء محابس الليل ، صبح حزين كأنه يصيخ لحزننا يؤذن به عم بكر آذانا صامتا ويرتله ترتيلا :

ـــ هذا هو حال الدنيا ..!
ـــ سعيكم مشكور ..!

والناس يأتون ، يسربون ، يبصمون خطواتهم على الأرض الندية ، يميلون على مكان الاجتماع ذاهلين عن عمل اليوم ينتظرهم فى الحقل ، وعن البهائم تتململ فى مقاودها فى الزرائب :

ـــ هذا هو حال الدنيا ..!
ـــ سعيكم مشكور ..!

الصبيان على البعد يرمقون الجمع . ودوا لو أنهم كانوا رجالا ، وكانوا معنا الآن واقفين يقدمون واجب العزاء :

ـــ هذا هو حال الدنيا ..!
ـــ سعيكم مشكور ..!

وأصافح الأيدى الريفية الخشنة ، أطالع الوجوه العارية من بهاء أقنعة الاحتفال . هؤلاء رجال ألفوا أن يلزموا الحقل والبهيمة حتى أصبحوا أشبه شيء بفروع غليظة

جافية لم تشذبها ممارسة طقوس الاجتماع والمجاملة . هؤلاء الرجال كانوا فرائس سخرية إبراهيم . كان يمزق جلودهم بكلمات كالسياط . كان يشتم غباءهم وجمودهم ووثنيتهم وإنحباسهم كالعبيد فى عالم شغلهم لايرون غيره . كان يضحك من بلاهتهم وسقوطهم فى أحابيل النازلين على القرية من متسولين أو بائعين ، أو الأدعياء من مشعوذين أو أفندية أو رجال شرطة . كانت كلماته تطاردهم كأنها كلاب مسعورة تأخذ بتلابيبهم لا ترعى فيهم حرمة :

ـــ هذا هو حال الدنيا ..!

ـــ سعيكم مشكور ..!

وهاهم يجيئون كذلك ، أصحاب الوقار والتؤدة ، رؤوس العائلات . أعرف الوجوه والقلوب . هؤلاء الأتقياء الذين يمشون وئيدى الخطى ، لايستعجلون ولا يتلكأون . يقولون الكلمات الحكيمة . يحرسون سكينة أنفسهم . يرهفون إنصاتا متشوقا يستصفى من إضطراب هذه الحياة صغارها نغمة خاصة رتيبة مضطردة متساوقة جليلة ، لايزعجها تضارب مسارات الحيوات ولا إختلاط الرغبات والشهوات . يرامق هؤلاء مناحة النسوان ويغضون البصر عن الحرام ويغمغمون :

ـــ هذا هو حال الدنيا ..!

لم يكن إبراهيم يطيق هذا الأنماط الصقيلة الباردة الخالية من نبض الحياة الشرس المضطرب المتداخل . كان لسانه الفاتك مثل نصل مسموم ، وكلماته المشحونه بكهرباء خاصة تجعل الرجل منهم يبيض خزيا . يمشى متعثرا وهو يعلم أن عينى إبراهيم المحمرتى الأجفان العاريتين من الأهداب مغروستين فى ظهره ، ويسمع الضحكات تجلجل وراءه تسخر من سمت وقاره وحكمته . مازال فى الهزيم المكتوم لهذا الصحح رنين صوت إبراهيم الغضوب . مازالت مرارة حقده الهائل ترفق على كل

الأشياء الصبحيه :

ـــ سعيكم مشكور ..!

أصافح الأيدى التى صقلها إدمان المصافحة وإستطعام دفء الاحتضان . أجد فى الوجوه مهابة حزن عميق . ليست هذه أبداً أقنعة يقضى بها واجب العزاء ، بل هى وجوه روعها إختلال خارق فى نظام مضطرد مألوف .

والناس يأتون ،تكشف الشمس الصفراء المبلولة عن مسارب سعيهم إلينا ، رجالا هرمين وشباناً أحداثا ، ناسا صاحبوه وناسا جانبوا مجلسه . جاء صعاليك المقهى النحيلو المعاصم ، الذين يعملون يومهم وينفقون قروشهم على الورق . جاء الرجال الآخرون الذين يملكون السواقى على رؤوس حقولهم ويملكون مخازن الحبوب تثقل حيطان دورهم . جاء حفاظ القرآن دون أن يأخذوا للمناسبة أهبة من جلباب أو عمامة . جاءوا فرادى ذاهلين لاينظمهم موكب ، ولايوحد خطوهم وقار .

الناس جميعاً . إحتشاد صامت ثقيل الوطء . يقفون تحت الشجرة فى الباحة قدام سلم شرفة الدوار . يجلسون على الأرض بجوار الحيطان . الصمت رابض جهم . الوجوه يوحدها ملمح دهشة مرتاعة وعزم مجتمع ساخط . عم بكر قائم منتصب لايريم . عكر الجبين مشرع الوجه . عيناه مطموستان فيهما كآبة التماثيل وصلادتها . شفتاه تلتويان دون صوت ، كأنما هو يؤذن بالغضب فى هذا الضحى آذانا أخرس تدركه القلوب وتنبض به وتجاوبه .

ـــ هذا هو حال الدنيا ..!
ـــ سعيكم مشكور ..!

يصافح الناس . ينظرون . ليس من أجلنا جاءوا ، ليس من أجل واجب العزاء . ثمة شيء إنكسر . سؤال فادح غابت إجابته ، وكلما إزداد التحديق فى صفاء الضحى إزداد العماء .

تنادى حفاظ القرآن من وسط الجمع دون صوت . قاموا . حفزتهم رغبة جارفة فى مغالبة العماء بالترتيل . رغبة إجتاحت الحشد متنقلة بين القلوب المتراصة قلبا لصق قلب . مضى الحافظون يصعدون سلم الشرفة قليلين فاقدى الهندام ملهوجين ، يتدافعون إلى الغرفة الداخلية المعتمة . ومن هناك بدأت تعلو حمحمة قلوبهم :

« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »

تكرار متواصل راكض يخب به صوت الحفاظ ،يصل إلى قلبى عبر العتامة الساجية الملونة فى ردهة الدوَّار . ثم يتكاثف ويتزاحم كأنه وقع حوافر خيل الفرسان خارج من صفحات كتب السيرة . ثم يردد جمهور الناس السورة فى نغم مكتوم كالزلزال يرتج له الضحى المشمس المترب الأنفاس . ما هذه قراءة الفقهاء الذليلة على أرواح الموتى . إنه نشيد قديم طُمِرَ فى قيعان القلوب زمنا ثم هو الآن شلال هادر يكتسح الخوف والقهر .

« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . »

إيقاع لطم الخدود وضرب الأرض بالكعوب ومجاوبة الندابة بالصراخ فى مناحة النسوان إنضفر ساخناً فى جديلة صوت قراءة الرجال .ماهذا نواح ثكالى ، بل غضب أكباد محروقة تهزج وجيعتها على رقصة محمومة وترفد نشيد سورة الصمد بلوعة حرى . تعتدل الموازين فى قلبى . أقيم قامتى . أُخَلِّى بين قلبى وبين هزيم

صدور الخلق الزافر بالهول ، يطهرني وينقي من الأدران حزني . تترسل دموعي والناس مازالت تأتي .يقبلون عليَّ :

ــ هذا هو حال الدنيا ..!

ــ سعيكم مشكور ..!

من أعلى الشارع يقبل الرجل طاويا قبضته على تصريح الدفن وضاماً حجرة على الكفن وجاراً وراءه الحمارة منكسرة ذليلة . أصبحت القراءة والمناحة رعداً ترتج له الأرض تحت الأقدام . الرجل يتقدم بين صفوف المعزين الواقفين أو الجالسين جنب الحيطان ماداً يده بالورقة المطوية يكاد يسقط على ركبتيه تأثما ومذلة . تقدم العم الكبير إلى الرجل حرره من حمله . ثم صعد به فى يديه سلم الشرفة . سوف يمضى إلى الغرفة فى الدوار . هناك سوف يخيطون الكفن منحنين على القماش متهامسين مثل نسوة حزانى يجهزن لبوس المفارق لغيبة طويلة .

حتى إذا ماإنتهى الحفاظ من خياطة الكفن أعطوه للعم . نزل به سلم الشرفة كأنما يحمله تيار القراءه العارم . توجه إلى الدار القِصية فى الجرن تتبعه ثله من الرجال . رأيتهم يقتحمون الدار على النساء . تفكرت أن الجسد سوف يغسل ويطيب ثم يدرج فى الكفن . إنطلق من دار الميت صراخ النساء . البنات المذبوحات الوجوه بالدموع على الباب طين فى أيديهن الطرح السوداء كطيور مرفرفة مشئومة ، يشدخن القلوب بالتفجع الأليم واللوعة الكسيرة . إضطرب الجمع بالحركة . نهض الرجال واقفين أشد ماكانوا جهراً بالقراءة . إرتجفت يدا الشيخ بكر ووجهه مغبر صامد . برز من بين الناس أربعة شبان أحداث . خطفوا النعش من على الأرض وإندفعوا به ناحية دار الميت ، يطير عاليا على أكتافهم وهم تحته كخيزرانات طويلة طرية حتى دخلوا به الدار . وحلت لحظة ترقب إنبصمت تهدجاً عميقا على قراءة الرجال . ثم خرج النعش بالجثمان من الدار ملفوفا بالغطاء الأحمر

القديم الذى بليت زخارف الكتابة عليه وتهرأت أطرافه . النساء مجنونات فزعاً وتلويحا وصراخا . غابة الأيدى متوتره مرتجفة الأصابع متشوقة ملهوفة مائلة على النعش الذى يتحرك فى جلال قدماً .

إنشق الجمع الواجف بالقراءة أمام شرفة الدوار . تباعد الناس على الجانبين يوسعون طريقا للنعش المتقدم إليهم . حتى إذا ماصار وسطهم إلتأمت الضفتان . يمضى الموكب ناحية المسجد رصين الايقاع مخليا وراءه صراخ النساء . الميت طاف على رؤوس الناس . مازال النسر الوحيد المحمر العينين الملىء الجسد بالقروح . أى ثمن فادح إستأدته عودته إليهم ، وأى ثمن فادح إستأداهم رجوعهم إليه . الموكب يمضى إلى المسجد .

هناك جرى الناس هلعين . خلعوا الأحذية وقفزوا وأصدروا تحذيرات فزعة حتى خلصوا فى النهايه بجسم النعشمن فتحه الباب . مشوا به على الحصر . تنادى حمله النعش نداءات مبتورة مهتاجة . على الحصر وضعوه جنب المنبر قبالة المحراب . وجدت العتامة المطمئنة التى طالما وجدتها فى ردهة دوارنا . أسلمت روحى لذلك السكون النابض بصرامة الاجتماع فى جوف المسجد . النعش أمام الناس قائم مغطى . إنتدب من بين الصفوف فقيا حدثا عليه ثوب رث من صوف الغنم . كبرَّ ناويا صلاة الجنازه على هذا الميت . إنتظمت من ورائه صفوف المصلين فى تكبيرات متتابعة متسرعة ملهوجة . أما الذين لم يكونوا على وضوئهم فقد بقوا متربصين ينظرون .

رفعت عينى فاذا بى أرى البيرق الكبير . قماشه الهائل مضموم على صاريه العملاق . هامته النحاسية الصدئة تكاد تلامس سقف الجامع . رائع وشامخ ذلك الأب الجليل . منذ متى لم أره حتى أننى نسيته وأفعم داء النسيان روحى باليتم . هأنذا أراه فأعود مرة أخرى إبناً فخوراً بأبيه . سقطت الغربة والضياع واليتم

وزكت روحى باحساس رضى بالانتماء إلى نبالة قديمة . أين يكمن سر البيرق ؟ أفى الهامة النحاسية التى هى قبة وهلال ونجمه خماسية ؟ أم فى تلك الخشبة التى هى شجرة واحدة عجيبة نبتت مأمورة وقطعت مغبوطة منذوره لتكون صاريا لبيرق قريتنا ؟ أيدى حملة البيرق تحتضن الجذع المبارك حتى أصبح صقيلا ، وكلما إزداد الصقال إزداد إتضاح معدن الخشب النادر الذى صنع منه الصارى المقام عليه حمل القماش .

لاتسألنى عن القماش فاننى لم أره إلا مضموماً على الصارى . ولا تسألنى عن الحكايات العجيبة ، إننى قد أكون سمعتها وأنا جالس على الأرض مع العيال فى الكتاب . ، أو قد أكون سمعتها من الرجال فى الدوّار ، أو من واحد من رفاق اللعب منتفخ البطن من مرض الطحال حتى امتاز بالسكينة والعذوبة وكسب توقير العيال ، يحكى لهم ويسمعون والمساء سحرى القمر . يقول إن من لمس قماش البيرق ثم مسح بيديه على وجهه وصدره ، يبرأ من العلل ولا يطوله الشر ولا يضيق عليه فى الرزق . فاذا ماجمّدت الدهشة القلوب وملامح الوجوه ، إستدرك العليل محذراً من أن يلمس قماش البيرق واحد وهو نجس أو مغلول الصدر أو سيء القصد أو مضمر شراً ، إنه إذن تكسر ظهره لعنة البيرق . ضيعت عمرى بين اللهفة على بركة البيرق والخوف من لعنته .

منذ متى لم أره ؟ لاأدرى ! كل ماأذكره ! إنسلابى إزاء الكيان الشامخ يتخطر فى موكب حاشد قد يكون جنازة أو زفه ، لكن البيرق كان على أى حال مضموم القماش . لاتسألنى عن الحكايات العجيبة ، فقد نسيت من قال لى أن قماش البيرق لاتحل إضمامته ويرف جناحه الهائل فى الهواء إلا إذا زلزل الدنيا حادث جسيم . ومن طيات القماش المضموم رأيت حروف كلمات النقوش لم تسر إلىّ بمعنى . وأنا لزمت الأدب ولم أشفف بمعرفة ماكتب . فقط حدس القلب أنها كلمات عوالم ، بين حروفها يضطرب البحر ويمتد الزرع والقفر وترتفع السموات

العلى ، وترن أعذب الأصوات بأحسن المواعظ وأبلغ الحكايات . حدس القلب أن نقوش البيرق هى علمنا وهو قليل ، وأنها علمنا وهو كثير يحيط بسر الموت والحياة وتقلب الناس بين البدء والختام .

لم أعرف حينما رأيت البيرق للمرة الأخيرة ولم أعرف هذه المرة من أين خرج . ولم أعرف فى المرتين إلى أين يئوب . ولقد وطدت نفسى على ألا أسأل ، ورجوت ألا يحكى لى . كذلك وجدت فى نفسى صدوداً عن التأريخ له ، متى وكيف ولماذا ومن الذى صنع ومن الذى رصد المال والجهد . قنعت بيقين يشرق فى روحى كالصبح بأن البيرق خرج من صفحات الكتب التى خرجنا منها . من يوم أن كان بيرقنا ، يخرج لنا فى فرحنا وفى حزننا ، يتقدم مواكبنا ويعقد عزمنا . وهاهو منتصب شامخ يلقى بظله غير المرئى على جثمان عمى ابراهيم المسجى فى نعشه أمام صفوف المصلين .

بعد الصلاة أحاط الناس بالنعش حملوه . تهادى البيرق الكبير سائرا . مال حتى يخرج من باب المسجد ومن ورائه الميت طاف على رؤوس الخلق . حمل خادم المسجد حزمة من رايات حمراء فى عصوات من الخشب الأبيض . وقف على باب المسجد محتقن الوجه طائر التقية مبهدل الثياب من تزاحم الخلق عليه . ناول كل يد راية . تخاطفت الرايات الأيدى وتدفق الناس مندفعين يلحقون بقطار الجنازة .

إزدحم الشارع بالموكب الجليل . عم بكر وعمى الكبير على جانبى البيرق ، كأنما يربت على رأسيهما مباركا بكفين غير مرئيين ، يتقدمان الجنازة مغمضا العيون وعلى وجهيهما عزم مكفهر أغبر قرير . الناس متلاصقون كتفا لكتف ، فى أيديهم الرايات الحمراء يضمون القوائم الخشبية إلى الصدور ولا ينظر أحد للآخر ، كلهم متعلقو الأبصار بالبيرق ، متوحدو الملامح بجهامة مروعه . وقع الأقدام ولهاث الأنفاس نغم مزلزل .

قبالة المقهى وقف البيرق ، ثم مال مومئا . إضطرب الجمع وتداخل ليقف . هاهنا كان قلب الميت يهوى . مازال فى قلب الصمت صوت إضطرابه وإختلاطه بصعاليك المقهى . مازالت ترن ضحكاته المجلجلة وزرايته بكل شيء . إجتاحت جمع الناس صرخة مكتومة . بكيث فيضا ساخناً متدفقاً . ماظننت أن القلب البشرى يمكن أن يختزن هذا النهر من الدموع .

مضى الموكب الهائل وئيداً يحبس فى داخله طاقه هائلة من خفق القلوب والأنفاس وحفيف الأقدام . ثم مالبثت هذه الطاقة أن تحولت إلى ترتيل . ثم علت القراءة وتميز اللحن ينتظم كل القلوب . الدور على الجانبين ، مايسقط رجل فى حفرة باب حتى يعود يقفز ملتصقاً بالجمع السائر . والنساء على الجانبين مقروحات الخدود ملوحات بالمناديل السود صارخات معولات يصنع تفجعهن إطارا ساخناً ثراً لقراءة المشيعين .

خلص الموكب من القرية إلى أول السكة الصاعدة إلى القبور . مال البيرق ناحية البيوت فى إطلالة وداع أخيرة . إمتد الجمع على السكة يعلو صدره ويهبط مع كلمات القراءة . هوت القرية متحدرة فى الخلف ، والآفاق غارت مبتعلة حول آماد شاسعة فى مركزها قطرة الموكب صغيرة . أقدام القارئين دقت على قلب سكة المقبرة فى إيقاع بدأ يتسرب إليه الوهن من الذهول أمام شسوع الدنيا وغلبة الموت وقلة حيلة الانسان .

وفجأة علا الترتيل من الناس جميعاً فى آن وفى إيقاع واحد متدفق مجتاح . نغم غريب لم تجربه أبداً آذان هذا النهار المزدحم بالشمس والغبار والزرع والشجر . نغم يحرث فى قلب العماء بألف سلاح محراث :

مولاى صل وسلم دائما أبداً

على حبيبك خير الخلق كلهم

كانت هذه الكلمات حلية رقيقة على حيطان مسجد الأباصيرى بالاسكندرية ، يسقط عليها الضوء الملون بألوان زجاج النوافذ . كانت عذابا باكيا منغماً فى أماسي الحضرة فى دوارنا فى الغرفة المضوأة بالفانوس ، يقرؤها الدراويش مكتوبة بخط النسخ المنمق فى صحائف صفراء وهم مبحوحو الصدور متهدجو الأصوات . كانت هذه الكلمات سخرية متاحة لعمي إبراهيم ، يرددها ويهز رأسه على إيقاعها هازئا إذا مر به درويش من الدراويش . الآن هى لحن يرج النهار ويحاجج العماء ، وأنا إلتصقت بالجمع أجأر بالغناء ووجهى مغسول بالدموع .

وإذا بقماش البيرق إنطلق طائراً . إنفرد راية حمراء هائلة رثة متربة القماس مؤطرة بشراسف خضر حافلة صفحتاها بنقوش كتابة بحروف من قماش أبيض . القماش يصفق وجه الريح ويحمحم بجناح عملاق على رأس الميت المسجى فى نعشه المحمول على الأعناق . أصبحت القراءة جنونا ، ماتدرى أصنعتها المعجزة أم هى صنعت المعجزة . لكنني لم أر الناس أبداً أقوى مما أراهم الآن . وأنا لم أكن أبداً أحد معرفة ولا أصفى روحاً مما أنا الآن جلجلت فى داخلى كلمات الميت المحمول :

« من يمت إنما يذبح ذبحا ، من يمت إنما يفنى ويندثر ويصير تراباً »

الصراخ فى داخلى والعزم فى قبضتى والراية تصفق وجه الريح بحول والموكب يمضى ناحية المقبرة بلا خوف .

عند القبور إندفع الرجال هاجمين . تقافزوا فوق المصاطب وحجوم القبور يتسندون على قوائم الرايات ويرتكنون على الشواهد . صنعوا حلقة وثيقة من الأجساد حول

الحفرة المفتوحة فى إنتظار الجثة . والبيرق إنتصب شامخا يلقى بظله على القبر
حمل الجثمان من النعش على أكف الرجال ، يسير ماضياً إلى اللحد دون أن
يضطرب مساره بين صفين من الوجوه تهوى بالقبل على نتوء الرأس تحت الكفن .
أتصور وجهه تحت الحرير الأخضر وقد اكتسى هدوءاً رائقاً . هاهو ذا للمرة الأولى
تبرد نار قلبه ، يصالح العالم ويخلد للصمت والناس يلثمونه فى حب غير مشوب
بالخوف .

إستقر الميت فى قبره . أهيل التراب حتى ردمت الحفرة . دار الشيخ بكر حول
المصطبة ، جلس القرفصاء مسنداً جبينه على جدارها . تصورت أن جبهته تلامس
جبهة الميت الممدد تحت التراب ينصت إلى الصوت العميق يلقنه حجته . أسمعه
لأول مرة هذا الصباح طلقاً نافذاً . تحلق الناس حول القبر يحدقون . كأنما رأيت
الميت فى قاع الحفرة عند أقدامهم جهم الوجه متفكراً . وصوت عم بكر يتدفق
يواصل كلامه حاراً خالصاً كأنما يحادث حياً من الأحياء .

أوشكت أن أرى إبراهيم يفتح عينيه ينظر إلى محدثه منصتاً مبهوتاً . وعم بكر
أصبح صوته منذراً مجلجلاً :

فإذا جاءاك
وأجلساك وسألاك ...
فقل لهما ...

غبتُ عما حولى . وحينما أفقت كان عم بكر قد قام واقفا والناس حوله ينظرون
متوترين ملهوفين . سألهم بصوت جليل :
ــ ماتشهدون ... ؟
وأتاه ردهم هزيما رج جنبات الدنيا

ـــ كان صالحاً

برلين الغربيه ١٨/٣/١٩٨٢ عبد الحكيم قاسم

حكايات حول حادث صغير

عبد الحكيم قاسم

الفتاة العمياء :

الجو مثقل بكآبة غريبة ، والشمس تؤذن بالمغيب ، والعمياء الصغيرة متربعة بجوار السور على رصيف الأسفلت ، يداها مبسوطتان على وركيها ، ذابلتان سمراوان ، لاعيون ، حفرتان عميقتان متآكلتا الرموش ، فمها واسع وشفتاها ممطوطتان مليئتان بالتوتر .

ترتل القرآن كفونوغراف قديم ، كل انتباهها مركز فى أذنيها وهى متصلة بأسفلت الرصيف اتصالا وثيقا ، تتربع عليه وجسدها المرهف يلتقط بسرعة فائقة كل نأمة يحبل بها باطن الشارع وينقلها بسرعة فائقة الى اذنيها فيتوتر جسدها كله وتمتلىء بالترقب .

فلربما فى هذه اللحظة يختل نظام هذه الخطوات قليلا ثم تتلكآن قبالتها هنيهة ثم يسقط قرش فى حجرها. هنا فقط تتحرك يدها لتلتقط القرش وتقذف به فى جيبها ثم تنتظم قراءتها مرة اخرى ...

وهكذا ، وقت ممطوط بلا نهاية ، تقطعه لحظات الترقب تلك التى لا تلد القروش دائما بل غالبا ما تمضى الخطوات مصممة ، غير مباليه وتموت هذه اللحظات دون أن تعقب .

والظلام الذى يلف متسولتنا الصغيرة ساخن خانق ، التصق وركاها وردفها بالرصيف التصاقا ملهوفا ، وأرهفت أذنيها وتطاول رأسها المفقوء العينين واضطربت ، كان ثمة خطو يخفق فى أحشاء الأسفلت واهنا مترددا لكنه يكبر مع اللحظات ... آكيدا ، واهنا يسير هذا الخطو لكنه وهن منتظم لا يشوبه اضطراب ... يمر بها متجاوزا اياها ، وهكذا ماتت اللحظة عقيما من غير عقب .

لكن فى ذلك الظلام كان ثمة شىء يموت ، كلمات مختنقة ولهثات مريضة ، ليس الخطو الذى يحبل به الرصيف هو الذى يعنيها هذه المرة ، انما تلك الكلمات المختلطة التى يحملها الهواء الى أذنيها يا له من عالم مبهم ، الأشياء تتحرك فى الظلام دون أن تتخذ شكلا ما ، تحدث أصواتا لكنها لا ترى .

ــ أنا هموت

ــ الشر بعيد يا خويا

صوت رجل لاهث مقطوع النفس ، حزين كعديد الندابة ، والمرأة ، لعلها زوجته أو أخته .. هيه .. الناس يموتون كل يوم ، لكن ... أرهفت أذنيها لكنها فشلت فى التقاط بقايا الحديث ، غرق فى ضجيج الشارع ، ازدادت شفتاها توترا وقطبت جبينها قليلا ...

ثم مرة أخرى واصلت ترتيل القرآن كفونوغراف قديم وهى تهز جسدها هزا مع القراءة وتحكم اتصالها بأسفلت الرصيف لتلتقط الخطوات القادمة وتتصيد اللحظات المليئة بالترقب والتى قد تلد فى حجرها قرشا .

من عدلى الى الاسماعيلية :

المسافة قصيرة كعلقة البنصر ، فهو قد رمق الرجل الأصلع الجالس خلف البنك العالى بلهفة ونوع من الخوف ، والرجل اشار له على الكابينة التى يتكلم فيها فاغلقها باحكام ثم رفع المسماع الأسود وبمجرد وضعه على اذنه جاءه الصوت من الاسماعيلية .

ــ ألوه

وارتعد من المفاجأة .. لكنه رد بسرعة

ــ أخوك مات

وتفكر كيف تمت المسألة بهذه السهولة ، انتابه ارتياح ، كان يتصور نفسه سيصعد جبلا عاليا .

لكن فى الاسماعيلية كان التليفون الاسود يتقافز على المنضدة الصغيرة كطفل ملسوع ، جرى الرجل والتقط السماعة فهدأ الجهاز فى مكانه .

ــ ألوه

ــ أخوك مات

ــ لاحول ولا قوة الا بالله

وضع السماعة فى مكانها وسمع (تكه) صغيرة ثم غرق كل شىء فى الصمت والعتمة ، الكراسى الكبيرة والنجفة ، المصباح الصغير الساهر يلقى ضوءا

شاحبا على رؤوس الاشياء ، ورجع الى غرفة نومه ، شريط باهت من الضوء يشق السرير ، امرأته تحكم منامتها على نفسها حتى لا يتعرى من جسدها شيء ، اغلق الحجرة ثم عاد الى الصالة ، جلس على كرسى كبير ، كان من المفروض أن يدخن الان سيجارة لكنه ممتنع عن التدخين من سنين طويلة ، اولاده يغطون فى نوم عميق ، صوتهم يأتيه من غرفتهم هو وحده الذى أحس بعاصفة الضجيج تجتاح الشقة فى الليل ثم (تكه) صغيرة ويغرق كل شيء فى الصمت من جديد .

عليه أن يسافر مبكرا من صباح الغد .. أفلا ينام قليلا ... ؟ لقد مات ، هكذا ختم الموت هذه الحكاية ، غريب ، الموت دائما ختام غريب لكل حياة ، يصيبنا بالحيرة والخوف ، ترى هل يموت هو الآخر ؟ حقيقة بارده كالثلج ، ظلال حالكة السواد وبقع شاحبة من الضوء واقعة على السجادة ، الرسوم تتلوى والورود تتخذ أشكالا غريبة ترى هل نجح الموت فى دفن تلك الابتسامة والنظرة المستهجنة الرافضة ، ظلت هذه النظرة مغروسة فى ايام حياتهما كلها ، لكنه الآن مات ، وها هى العتمة تغرق كل شيء والكراسى الكبيرة تستطيل مساندها كشواهد القبور ، وهو وحيد هامد .

يجب أن ينام فان عليه ان يسافر مبكرا فى الصباح ، وهناك سيكون هادئا مكتسى الوجه بالأسى ، لن يبكى ، فهذا لا يليق ، لكن ربما سكب دمعة فى بعض المواقع ، على أى حال سيكون صوته عميقا متهدجا قليلا ،وسيأمر كثيرا من المحيطين به ، وسوف تعلق احبال المصابيح وترص الكراسى وينطلق صوت المقرىء ، وسيدفع تكاليف كل شيء ، هو لهذه المواقف وغيرها ، من لها سواه ، من يوم أن خلقه الله ، وحينما يوغل المساء سيكون جالسا فى ركن من أركان المكان ذابل العينين ثاكل حزين ، وهو هناك فى القبر ، ربما تكون عيناه فى ذات اللحظه تبرقان بتلك النظرة الرافضة المستهجنة وتلتوى شفتاه بتلك الابتسامة الهازئة ، ذلك الانسان الغريب الذى طعن كل لحظات انتصاره بتلك النظره وتلك الابتسامة تماما

مثل ذلك اليوم ، حينما جلس الجميع على الكنبات المرصوصة الى جوار الحيطان فى بيت الاسرة الكبيرة ، وهو يحكى كيف توسط له عند المدير وكيف حصل له على عمل مناسب رغم أنه فشل فى دراسته ولا يملك شهادة ما . ثم كيف سرق مخازن الشركة وباع المسروقات وانفق ثمنها على ملاهيه واصحابه السيئين . وبالرغم من ذلك لم يقدم للمحاكمة ، فقط فصل من عمله ... اكراما لخاطره هو...

كان يحكى وله كل العيون وكل القلوب ، لكن أخاه كان هناك يرمقه رافضا مستهجنا ...

ذلك الانسان نصف المجنون الذي بدد ايام حياته ، لكن هو اشترى كثيرا من الكراسى ذات المساند ، ووعاء للطبخ يصفر حينما ينضج الطعام وزوجته تمتلىء عيونها بالرعب حينما ينظر اليها وأولاده يفوزون بالجوائز فى الفصول .

لكن يبدو انه لن يصيب شيئا من النوم تلك الليلة ، مع أن سفرة الصباح طويلة شاقة ، رأسه جافة ومخه يقظ بشكل يكاد يصل به الى الجنون ، ثمة خطأ بشكل أو بآخر ، لكن أين .. ؟ ولماذا .. ؟ يجب أن ينام ليسافر فى الصباح ، يجب أن ينام .

فى تلك الفيلا البعيدة :

بالرغم من أن الجو لم يكن باردا إلا انه كان معتادا على ان يحكم اللحاف حوله حتى اكتافه ، وبالرغم من ان الفراش كان وثيرا الا انه لم يكن ينام الا لماما ، وكان يقضى الساعات الطويلة يتأمل مصراعى الباب المغلقين وفى تلك اللحظة دخلت عليه زوجته .

ــ الكاتب مات .

لم يدرك ماذا قالت ، ظل يتأمل وجهها دون أن يكون في رأسه فكرة واحده ثم بدأ تساؤل صغير يزحف على عقله ، لماذا تضع نظارتها الطبية في هذا الوقت من الليل ، وشغله هذا التساؤل بقوة ، ثم ثبت له أنه لا يعرف للآن لماذا صنعت نظارات طبية في حين أنها لا تعرف القراءة والكتابة .

ـــ الصبح تروح تأخذ بخاطر مراته ...لله .

ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها ، وتأمل مصراعي الباب وهما يتضامان باحكام .. مساحة بيضاء لا توحي بشيء .. وابتسم حينما رأى وجه الكاتب ، في تلك الغرفة وسط اكداس صناديق الزجاجات الفارغة والمليئة ، وذلك المكتب الصغير وصفوف الدفاتر السوداء الأغلفة . تلك الدفاتر تثير سخطه دائما ، الصفحات والخانات والأرقام والكلمات . أسرار مبهمة لم يستطع طول حياته أن ينتصر عليها . صعد من الحضيض الى القمة . دار بصندوق العدة في الشوارع يصلح السخانات والثلاجات . جلس القرفصاء أمام أبواب الشقق . نظرت اليه مئات العيون المكحولة نظرات شذراء . ثم امتلك لنفسه فيلا وسيارات ومصانع لكنه لم يستطع أبدا أن ينتصر على سر الكتابة . ذلك الكاتب الصغير كان يجلس على مكتبه في الحجرة المكدسة بصناديق الزجاجات الفارغة والمليئة ويمد يده وتحتضن أصابعه الطويلة الرشيقة الدفتر الأسود الغلاف في حنان وتفاهم ويفتح الصفحات . وتنتشر امام عينيه الخانات والأرقام والكلمات صفوف من الوجوه الدقيقة الممسوخة تنظر اليك ببراءة وهي تخفي المؤامرات والسرقة .

ـــ آدي دفتر الصادر يا حج ... ميت صندوق برتقان للمعلم عرفة ..

انه يدرك سرها ويلعب بي ذلك الكاهن . جهد خارق فوق طاقة البشر سنين وسنين من العمل المتواصل بلا هوادة وها هو ذا يقف صغيرا زريا كحذاء قديم أمام ذلك الكاتب النبيل الجبهة وخصلات من شعره الفاحم تنسدل عليها في جمال .

ـــ اطلع من مصنعى ...

كان الصوت يرن فى داخله وتهزه الكلمات غير المنطوقة بعنف تحت اللحاف

ـــ اطلع من مصنعى ...

ـــ ليه يا حج ؟..

ـــ انت كداب .. ودفاترك كدابه .

ـــ وديها للمحاسب .

ـــ انت تضحك عالمحاسب وعالمحامى وعلى وكيل النيابه وعلى الدنيا بحالها .

ـــ اقول ايه أنا فى الكلام ده ؟

ـــ ما تقولشى حاجه .. اطلع من مصنعى .. روح اشتكينى .. فى أجدع محكمة ، اشتكينى .. أشمع المصنع .. بس مش هتعتبه تانى .

ـــ مش شاكيك يا حج رزق عيالى على الله .

ومشى خارجا وذيل جلبابه يخفق على كعبى حذائه المطليين باعتناء . هكذا خرج ... وبقى مصراعا باب غرفة النوم فى تلك الفيلا البعيدة أبيضين من ورائه ومشى الحاج فى أرجاء المصنع وداخله ـــ تحت اللحاف ـــ يهتز بالانتصار وهو يتأمل وجوه العمال المذهولة المتخبطة بالحيرة بعد أن أبعد رئيسهم ، بعد أن قطع الرأس المدبر ، الآن فقدوا تناغمهم القديم ، الآن يتحركون متخبطين بلا نظام لم يعد الالهام يصدر لهم من حجرة المخزن ..

كان يقلب صندوقا ويجلس قبالته طول النهار يرقبه والعمال يدخلون ويخرجون كأسراب النمل . لا يتكلمون ، وهو جالس على مكتبه لا تصدر منه نأمة ، ولكن ثمة لغة غير منطوقة ، ثمة قرون استشعار غير مرئية ، والغيظ يأكل أحشاءه كديدان قارضة سامة .

ـــ الايراد صلاة النبى حلو أوى النهارده ياحج .

ترى ماذا يعنى هذا .. ؟ ماذا يدبر ضده .. يتمنى لو يهب واقفا ويجرى فى كل اتجاه .. ويقيم حراسا على الأبواب .. ويضبط السرقة ، ويطعنه بزجاجة مكسورة أو ينهش فيه بأسنانه ، لكنه فى غمرة غضبه يهزه الانفعال من داخله ويبقى خارجه راكدا ... هذا الكيان الدقيق الزرى .

ـــ سهرتو فين امبارح .
ـــ عند حميدو كان مطاهر ابنه .. عقبال عندك فى أولاد اولادك .
ـــ والقعده بقى ... بتحكم ...
ـــ آهى بتحكم ياحج ، المهم نكون الصبح فى شغلنا ..
جاءته الاخبار ،كانت عزومة هائلة ، كل بضعة ايام عزومة ، وفى اخر الليل وزع على كل واحد نصيبه من السرقة .. اولاد الأفاعى ..
ـــ اخرج من مصنعى ...

ومضى والمعطف الكاكى يلامس أكتافه الدقيقة وفصل الحاج باقى العصابة والآن يمتلك المصنع لنفسه تماما ..

وضع مكان الكاتب ولدا مفزوع العينين ، والدفاتر تهرأت أغلفتها وتثنت اطراف صحائفها والمحاسبون يشكون من الاخطاء فى الحساب ، هؤلاء الحمقى هذا الولد لايسرق أبدا كل شىء يسقمه ، المحاسب وذلك الولد المفزوع دائما يود لو ينتزعه من مكانه ويقذف به خارجا .

لقد مات الكاتب ، كان يسرقنى ، وأنا أسرق الخواجه أريستون .. لكننى لا أهين قروشى أبدا .. وهو يسحقها بحذائه .

ـــ يابنى كون نفسك ... للزمن

يضحك ويظهر الاستخفاف على أطراف شفتيه .

ـــ خلى بكره على رب بكره يا حج .

انه يحتقر الحاج بذكائه الخارق وجبينه النبيل ـــ ذلك الكلب الذى لا يفهم لماذا تبقى ثمة عينان تنظران اليه هكذا .. ؟ ماذا يفعل ليخرس كل العيون .. ؟

انه بليد يدرك الاشياء ببطء شديد لكن هناك بضعة اشياء كان يجب أن يدركها ذلك الكاتب ـــ الحاج يؤمن بها بقوه ـــ انها حياته هو من غيرها لاشيء ،لكنه لايفهم .... لم يفهم أبدا .

عند بائع الأكفان :

مشيا هما الاثنان ، الاول طويل والآخر أقصر منه قليلا ، لأول يبدو حكيما رائق الفهم ، والثانى قلق متوتر ، فالمسائل لا تعطى نفسها يسهوله بل غالبا ما يكون العالم غير مفهوم .

مشيا هما الاثنان ، انتهيا من الطريق المرصوف ، وبدآ يوغلان فى الطريق المترب ، انتهيا الى بيت أصفر كئيب تتهدل شرفته على الواجهة فى حزن وأمامه غرفة التليفون ، تليفون له كرنك ، خفراء ذوى بنادق ووجوه ذابله ، قرية لمت أسماها على نفسها ، فالقاهرة زحفت عليها وأحاطت بها .

دخلا وجلسا على أريكة مفروشة بالحصير ، كان ثمة بضعة وجوه ، عامل التليفون عاكف على أوراقه ، هنا يكتبون بانصراف تام وبقداسة ، كان رجل ينعب :

ـــ البنت أنا لسه مقيدها فى دفتر المواليد ما فيش يومين .
رفع عامل التليفون وجها يتهدل عليه جلد زيتونى كجلباب قديم .
ـــ البطاقة بتاع المتوفى .
ومد الرجل الطويل يده بالبطاقة ، أفرغ الكاتب بعض بياناتها فى أوراقه وأعادها ، نظر فيها الرجل الطويل وهمس لرفيقه :
ـــ سنه ٤٦ سنة .

ـــ يا حول الله .
وتدخل الكاتب دون ان يرفع وجهه عن الورق .
ـــ لسه مقيدين عروسة سن ١٨ سنة .. كان فاضل لها سنه وتاخد الشهاده

وضع الخفير بندقيته بجوار الحائط ، ركن الجوزة بجوارها ، جلبابه لا يزال رطبا من طل الليل ، وهو نحيل كعنزة مريضه ، سارا مرة اخرى فى الطريق المترب ، ضاق واكتنفته اكوام السباخ قال الرجل الأقصرقليلا :
ـــ حاجه مقرفة .
ورد الرجل الأطول قليلا :
ـــ مصيرنا كده .. يوم من الايام نترمى فى حفره أنتن من دى .

ووجدا الطريق المرصوف مرة أخرى ، سار بهما ، بدأت جوانبه تنشط بالحياة ثم تكتظ ، على الجانبين الحوانيت وعربات اليد ، أكداس البضائع

والفواكه ، أنواع من الطعام والناس ، عشرات اللافتات يعلو صياحها على صيحات الباعة ولغط الناس ... لكن اللافته على دكان بائع الأكفان باهته هامسة ، نظرا اليها معا ، ربما فى نفس اللحظة ، ثم انحرفا ومشيا تجاه الدكان ثقيلى الخطى .

صعدا الى الرصيف ، الدكان عميق معتم ، يخالط العتمة أريج زيت عطرى قديم ، كان الرجل جالسا على كرسى فى قاع الدكان .

ـــ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ـــ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وانتصب واقفا ، عملاق خرافى الحجم خرج من صفحات الف ليلة وليلة ، الوجه الهائل الملامح يطل على الرجلين فى تساؤل :

ـــ عاوزين كفن ... شرعى .

واغمض العملاق جفنيه واكتسى وجهه سكينة جليلة ، ورفع يده الهائلة ناشرا السلام على الوجهين المتوترين .

وسحبا كرسيين ، قرصين صغيريين كلٌ على أربع قوائم هزيلة ، جلسا فى حذر بالغ ، تشبثا بالبنك أمامهما ليدعما جلستهما ، وخطى الرجل وقورا فى أرجاء الدكان ، وتنحيا بالكراسى ليفسحا له الطريق ، وقف على عتبة الدكان مديرا لهما ظهره ، واقتربا أكثر من البنك ، الرفوف صاعدة الى السقف وفى الخانات توجد انواع مختلفة من أثواب القماش ، عاد الرجل ومعه صبى المقهى القريب ، الصبى عجلان يخبط بالملعقة على الصينية النحاسية ، مضى يحمل رغبات الشاربين .

أطل بائع الأكفان عليهما ، انه ملتح معمم بشال ابيض يبقى منه عذبة تتدلى على قفاه .

ـــ حضراتكم عوزين الكفن الشرعى ... ولا هتتبحبحوا شويه .
ـــ السنة ياحج ... انت ادرى طبعا ... فى حدود المعقول ..
جاء تساؤله عميقا حاسما .
ـــ انتم متبرعين بشرا الكفن ... ؟
ـــ لا .. لا .. بس أولاده اولى .
ـــ الله مولى من لامولى له .

وبدأ ينزل الاثواب من الخانات ، يفردها على البنك ويقص القماش ، تلك سترة ... ذلك قميص ، ومزق القماش من حيث تدخل الرأس ، والان ثلاثة أدراج من البفتة والكتان ، ثم درج شامل من الشاهى .

طوى القماش ووضعه تحت ابطه ، وتحركت الكراسى الصغيرو والاجساد المتوترة تفسح له الطريق ، عاد ومعه رجل هزيل تتحرك عيناه بسرعة ويفرك يديه بالحاح .

ـــ الاسطى خياط .. جارنا .. مسيحى .. مش من ملتنا ، شافنى بدور على حد يخيط الكفن قال انا اعمله .. فهمته على شرعنا وطريقنا هيخيطه تبرع .. من غير فلوس .

وانصرف الاسطى حاملا القماش ، وتابع الحاج .
ـــ ولد طيب .. لهم الدنيا .. ومالهم فى الاخرة من نصيب ..
كان وجهه حاقدا رهيبا .
فجأة انصرف بكليته الى رجل صغير يقف متلجلجا على عتبة الدكان شفتاه ترتعشان بكلمات مبهمة ، وصرخ فيه مسلطا عليه وجهه الرهيب مفعما بالقسوة والغضب .

ــ عاوز ايه .

ــ كفن ... رجل مسكين ميت ... جارنا .

ــ كذاب .

ــ والله يا حج .

ــ كذاب .. فين تصريح الدفن .

ــ أجيبه .

ــ هاته .. أديك كفن .. هاته ... ان كان مزور هعرفه .. يا كلاب يا حراميه .

انطلق الرجل يجرى وثورة بائع الاكفان تطارده .

ــ بيجيبوا تصاريح مزورة عشان ياخدوا أكفان ..بس انا بعرفها ..

ثم بدأ وجهه يغيب وراء سحابة من السكينة .

ــ ما دام التصريح مضبوط ياخد كفن .

ثم أصبح هادئا رقيقا خجولا كطفل مذنب .

ــ الحسنه اللى تيجى من ناس زى حضراتكم .. ما تخشش بيتى .. احنا غلابه .. مالناش فى نفسنا حاجة .. ربك يجيب من هنا نحط هنا ... ..

وجاء الكفن ، فرد مخبطا على البنك .. هكذا يدرج فيه الميت ... ثم يطوى .

وجوه فى الزحام :

جلس الولد أمام عجلة القيادة كالدجاجة المسمنة ، منتفخ الاوداج متجهما وجلست أمه بجواره ، تحرف وجهها ملليمترات لليمين ثم تعود وتحرفه

ملليمترات للشمال ، وتساؤل يطن فى اذنها أى الأوضاع اكثر ملاءمة .. !!
أما الأب فكان جالسا فى المقعد الخلفى ، رأى وجهه فى مرآة السائق فضحك ، لم يكن الضحك ملائما لكنه ضحك .

ثبت الابن بصره على بقعة من الأسفلت أمامه ، تلك البقعة الطائرة ، ومقدمة السياره طافيه على ليونة الطريق ، قرر الابن بشكل حاسم أن ذلك التصرف لم يكن لائقا ، استعرض الموقف بكل دقائقه ، والحوار ، النقاط التى استند اليها كل من الطرفين ، صر على أسنانه وأحكم يديه على عجلة القيادة ، سينتهى من ذلك العزاء على وجه السرعة ثم يعود ، وفى المساء سوف يعلنه بقراره ... لن يتزوج ابنته !!

وتساءلت الأم : ترى من سيكون هناك .. هذا .. وتلك .. كلهم سيرون العربة الجديدة ، هذا أحسن ما عمل فى حياته ، طول عمره نصاب سافل كاذب ، لم يعدم وسيله لابتزاز مالها ، بل كلهم لم يتمنوا لها خيرا أبدا ، كلهم سفله ادنياء ، كادت تبكى ، لكنها تحسنست العربة بقوه وأعادت دموعها الى مآقيها ، ولفتت نظر ابنها الى أنه مسرع أكثر من اللازم ، ثم ضحكت .

وضحك الأب لهذه المرآه اللعينة مرآه العربة ، حوقـل ، لكـن الضحك يغلبـه ، المرحوم كان ابن حظ ، الضحك يملأ بطنه ، المرحوم كان نصابـا عالميـا ، لم يصدق قط الا فى الشهادتين ، وبعد ذلك كل كلامه كذب ، والجنيه وراء عينيه ، ينفقه فى قعدة ، ها هو قد مات ذلك المتلاف الخائب ، قاتل الله تلك المرأة

● ● ●

أكداس الناس تضغطه من كل ناحية ، تطاول برأسه الى أعلى ليتنفس لكن الهواء فى سقف العربة ساخن ، والشنطه فى يده ثقيلة ، تذهب وتجىء مع كتلة البشر المتماوجة وتجذب يده تكاد تقلعها من كتفه ، يقف على قدم واحدة

والأخرى معلقة يجوس بها باحثا عن مكان يريحها عليه ، لكن الارض كلها أحذية متراصة ، وحيثما حارت عيناه تصدمان بعيون منذرة بالثورة ، اكتسحه احساس عارم بالقرف ، تدلت ربطة عنقه السوداء ، فقدت احتضانها الحميم لياقة قميصه ، وتهدلت ملامح وجهه ، تندى جبينه بالعرق والتوت شفتاه بالغضب المكظوم ، لعن الحماقات والطقوس التى تحيط بالموت ، وجلوس الناس كالدمى المضحكة ينصتون الى مقرىء القرآن لا يستمعون اليه ، حماقات مقرفة تأتى بالناس من اقاصى الارض ليمثلوا أدوارا هزلية فى لعبة لا يعرفون من مقترحها .

ثم احس بتربيت على ذراعه ، وتملص فى الزحام كدودة تتلوى فى طين ساخن ، ثم لمح رجلا يقدم له مكانه ، ذابت قطرة السكينة وانتشرت فى روحه كلها ، أصعد تنهيدة عميقة وهو يلقى بجسده كله على المقعد وفى وجه أزواج العيون المسلطة عليه فى حسد وغضب أشرع وجها مكتسيا بالحداد ، وأحكم رباط عنقه الأسود ، وذابت عيونه بنوع من الأسى مفتعل ، ثم بدأ يعزل نفسه ناظرا من الشباك غارقا فى تيار المارة والزحام والواجهات واللافتات ، الأشياء تتخذ أشكالا غريبة وتوحى بأفكار مضحكة ، أليست حياتنا هذه شىء يصعب فهمه ، بل انها لتصيب الانسان بالدوار .

● ● ●

كان الترام خاليا ، ذلك الترام المتهالك الوئيد ، وكان الكمسارى رجلا عجوزا طيب الوجه ، ترنح مع الاهتزاز ، ثم وقف أمامه وعيونه مبتسمة مجهدة أعطاه القرش ، وعلى مهل قطع الكمسارى التذكرة وأعطاها له ، ثم تلكأ قليلا ، كأنما يعز عليه أن تمضى (المناسبة) دون أن يتبادلا حديثا ما — هذان العجوزان — لكنه مشى فى النهاية يترنح وينشر خبطات هينة بقلمه الحديد .

صوت العجلات فى القضبان والعربة تميل مغيرة مسارها ، ذلك الصرير

المعدنى المتطاول ، ثم أعطى السائق للعربة أقصى طاقتها فانطلقت طفلة فرحة يهتز جسدها وتصدر أحشاؤها أزيزا منغما طروبا .

واغمض الرجل عينيه ، غاب ، أشياء من الزمن القديم ، لم تكن الطرقات مزدحمة هكذا ، كانت الترام تسير وسط الشارع تماما ، وزمارة الكمسارى تخلق فيها الحياة وتطلقها على القضبان ، لكن الشوارع الآن مزدحمة خانقة ... ياه عربات من كل شكل ولون ، أنت لا تكاد ترى الأسفلت ، وجوه فى كل شبر ، وجوه ... وجوه ... وجوه ... متوترة عدائية ، يا للعزلة ، تداخل فى نفسه ، ترى كيف يكون عزاء اليوم ... وكيف يكون العزاء يوم موته ... انه حزين من أجل انسان يموت .

● ● ●

انحرف الاتوبيس فجأة وبقوة ، وطار التاكسى متجنبا ثقل الاتوبيس الذى كاد يسحقه ، لحظة رهيبة تقاربت فيها كتلتا الصلب الى درجة التلامس القاتل ، ابيض وجه السيدة السمينة وتثلجت اطرافها والقت رأسها مغمضة العينين على مسند الكرسى الخلفى فى التاكسى ، وأمسك رجلها يدها بقوة وبحنان عميق ... وجه مكتنز شوهته السمنه ، كم كانت جميلة وهى عروس ، كانت خارقة الجمال ، ماذا فعل بها خلال هذه السنين ، كان يحب جمالها ويرتعب منه ، قتله عامدا ، حولها الى شىء أبله خائف مهين اشفق عليها اشفاقا عميقا ، يا لقسوة الانسان الوحشية ، لماذا لا يكون الانسان رفيقا قليلا ، حتى هذا الذى مات ، كان فيه بعض الجوانب الطيبة لم يكن ضارا على الاقل ، لم يلحق بأحد ضررا ، بل ربما ساعد شخصا ما فى وقت عصيب ... من يدرى .

● ● ●

يجب ألا يراها أحد وهى تخرج الجنيهات الخمسة وتضعها فى يد زوجة المتوفى ، يجب ألا يراها أحد ، الحسنة التى يراها الناس تفقد قيمتها عند الله ، لذا

يجب ألا يراها الناس ، ستعمل ما وسعتها الحيطة ، ستدعوها جانبا ، لكن ماذا سيقولون عن ذلك الحديث الجانبى ، سيخمنون بلا شك ، اذن طريقة أخرى ، ستصافحها وتترك الورقة المكوره فى يدها ، لكن ربما سقطت على الارض لأن الاخرى لن تكون مدركة لما يقصد من المصافحة .. لا .. لا .. ستقول لها : ياه تصورى ، هذه أول مرة أرى فيها بيتك فى حياتى ... ماذا يوجدهنا..غرفة النوم .. مسكن جميل ، وخلسة تضع النقود في يدها ، فرحت بحيلتها وملأ روحها جلال دينى رائع ، لكنها فى طريقها صدمت رجلا يحمل لوحا مرصوصا بالأرغفة ، وقال الرجل لها كلمة بذيئة ، وتمزق الجلال بلا رحمة ومشيت مهينة ، واكتشفت أن الشارع قذر تملؤها الروائح الكريهة ، وحنت بقوة الى كنبتها وفراء الخروف الناصع البياض المفروش عند قدميها .. يا له من فراء جميل .

لن يعود أبدا :

دخل الرجل وفى يده ورقة صغيرة .. تصريح الدفن .. الرجل عيناه ضيقتان متآكلتا الرموش .. لكنها تحملان حزنا عميقا .

المكان ضيق .. أشكال رباعية غير منتظمة تحدها جدران قذرة مصمتة .. والابواب قميئة ضيقة ، لكن الناس هنا يملكون دربة غريبة على بذل أكبر كمية من الحركة فى هذه المساحة الضيقة .. دءوبون كبناديل الساعات يروحون ويجيئون وجوههم صخرية قاتمة من العناء وسوء التغذية ومكتسية بالحزن والصرامة فروات رؤوسهم مجدبة خربة .. وأذرعهم طويلة تحمل فى نهاياتها أكفاً كبيرة صلبة .

فى الركن وقف رجل عجوز .. جاف كفرع سنط .. لا عيون ، يرى من

خلال بقعتين ضوئيتين كحشرة بدائية .. تحمل خطوط وجهه حيوية رسم من العصر الحجرى .

ــ مستنيين ايه .. عيزين نغسل الجثة .

وانطلق من ركن قصى صراخ طويل ممطوط .. بضع عشرات من النساء فى نفس واحد .. لابسات الأسود .. وجوههن محتقنة بالدم مغسولة بالدموع ..انتشر فى الجو المعتم شيء غريب ، أصبح السرير الصغير فى الغرفة الداخلية ــ حيث يسجى ــ فى بؤرة كل شعور ، تقلصت وجوه الرجال الصلبة بمشاعر ذئبية .. زادت الحركة البندولية سرعة ، أصبحت محمومة خلع ذلك الرجل العجوز جلبابه ، ركن عكازه على الحائط ولوح بيده العجفاء .

ــ بنات بكر يملو ميه جديدة .

أصبحت الهمهمات والكلمات المبتسرة والأوامر السريعة غارقة فى ولولات النسوة النائحات .

وكان ثمة بضعة وجوه ملتصقة بمقاعدها فى ركن آخر .. وجوه متميزة فهى ريانة أكثر ، ولها الوان .. ولكن حركة أهل الحتة النشيطة تعزلهم رويدا رويدا ، من اول الامر كانوا دهشين أكثر منهم حزانى لقد أخذ هؤلاء الناس حزنهم كذئاب غبراء ، واحتفظوا به لأنفسهم ونظروا لهؤلاء شذرا وتجاهلوهم وعزلوهم .. تلفتوا حوالهم .. تداولوا فيما بينهم سؤالا ــ تداولوه سرا كقطعة من المخدر ... أليسوا أهله ؟

لكن الحركة فى الدار ازدادت حمى .. دخلت البنات حاملات صفائح

الماء لابسات الأسود يمسكن أطراف جلابيبهن يحسرنها عن سيقانهن قليلا ويحملن صفائح الماء كراقصات معبد مصرى قديم .

دارت البوابير لتسخين الماء وتقدم الحانوتى .. وجس الماء وأعلن أن حرارته مناسبة .. وتقدم الى تلك الغرفة ووراءه الرجال فى كتلة متلاصقة ، الميت ممدد على السرير ، مد يده وكشف وجهه .. شاحب .. نفس الجبين النبيل والشعر الاسود السبط يشوبه بعض الشيب .. والعيون مسبلة فى صفاء .. بعض ساعات السرور مع الاخوان .. وان صمت ثم انطلق صراخ النسوة الطويل الممطوط .. عشرات منهن فى نفس واحد .. المجموعات هنا تتحرك فى تجانس غريب .. عند رأس الميت لوح الكاهن بيده .

ــ مستنيين ايه .. عاوزين نغسل الجثة

دب اللغط .. الكلمات المبتسرة والأوامر الصارمة وعويل النسوة فى الحجرة الخلفية .

رفع الجسد الى طاولة محشورة بين السرير والحائط ، فى الركن كان الحذاء الذى ظل لامعا أبدا ..

نشر الكاهن غطاءً أبيض فوق الجسد المسجى ويداه الخبيرتان جردتاه من ثيابه وأراق الماء على جسده من تحت الغطاء وهو يصرخ بلا انقطاع (اشهد ألا اله الا الله وان محمدا رسول الله) ووراءه أنفاس الرجال مقطوعة وكلماتهم مبهورة لاهثة والكيزان تصك صفائح الماء فى وقع مضطرب مذعور .



وضع على الجسد ازاراً يستر عورته ثم نحى عنه الغطاء الأبيض وتبدى على

الطاولة. مسيح مغسول بالماء الدافىء يميل وجهه الى اليمين قليلا ، وانهمر نشيج الرجال بلا خجل كالنساء وتجاوب صريخ النساء فاجعا مريرا .

ثم بدأ يدرجه فى الكفن ـــ قميص ثم ثلاثة أدراج ثم شعار من الشاهى وربط لفة القماش عما يجاوز الرأس ومما ينزل عن القدمين وربطه عند الوسط ورفع ذراعيه الى أعلى صائحا « قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد » وانطلق كورس الرجال وراءه فى حمى مجنونة وصراخ النساء سياط طائرة تجلد الهواء . وحمل الرجال الجسد على السواعد مملوءا بالسكينة وسط الضجة الرهيبة وخرجت كتلة الرجال محشورة من البيبان والنعش رابض فى ساحة ضيقة ، مدد فيه ، وتساقطت الرؤوس على الجدث ، من كل شكل ذات فروات خربة ، أو مغطاة بألوان من الطواقى يقبلون الراحل .

حمل النعش على الاكتاف خارجا من الباب ، وبجزء من الثانية حل الصمت .. لن يعود يدخل من الباب هذا أبدا ...
ياله من حسم لايلائم طبيعة الانسان الهشة .
انطلق صراخ كاسح ...

عن الذباب :

عشرات من الاقدام ، أشكال من الاحذية شوهاء غليظة تزحف على صدر الأرض ، جرجرة النعال على الحصى متهدجة .. عواصف صغيرة من التراب ... ذبابات تزعجها الجلافة المجتاحة .. تطير تطن فى عصبية .. تدور بضع دورات ثم

تعود تربض بشراهة على صدر نتف صغيرة من العفن ..

ثمالات من صراخ النساء تتباعد ، والحانوتى يقود موكب الجنازة فى الشمس بلا ظلال والنعش يطفو على وجه الكتلة البشرية ثابتا مستقيم الخطوط فوق انحناءات الاجساد الانسانية .

ــ استغفروا لميتكم .

ويلوح الحانوتى بعصاه. صرخات رجالية بين الجميع وتجفل القلوب بالاستغفار .

أكداس البيوت تتساند فى وهن ، والحوارى تتسرب بينها فى دهاء ، وفى مقابلتها تقبع القبور مكينة متعامدة السطوح ، ذات أبواب حديدية تتدلى من صدورها اقفال صدئة .

وضع النعش على الارض .. وتحلق الحشد حول فوهة القبر .. ضرب باب الحديد حتى فتح .. جوف القبر معتم .. الطرقات على الباب الحديدى كانت قد أقلقت الذباب .. طن مستاء دائرا حول خمسة أجساد مسجاه أسود نسيج أكفانها بالتراب .

ضحك رجل بلا معنى .

ــ الخمسة أبويا وعمى واخواتى *..

ثم ضحك مرة اخرى مذعورا حمل الجسد على السواعد وأدخل فى القبر ..

سوى التراب من تحته ثم أريح فى مكانه .. أغلق الباب وسادت العتمة ... عادت الطمأنينة للذباب .. طن فى عذوبة ..

(مجلة « المجلة » ــ اغسطس ١٩٦٧)

البيع والشراء

عبد الحكيم قاسم

الليل

.. والمصباح على الدكة الواطئة الممتدة لسان اصفر مضيء تنعكس خيالاته على الزجاجة الشفيفة الغبشة ، وعلى خزان الكيروسين الخزفى الابيض ، والمرتلون يقدمون عبادة الية تحت اقدام الليل الهابط ، ليل هاتور البارد العارى النجوم .

فى أمان هم داخل جدران المسجد الغليظة ، لكن القلوب تدرك لذعة الريح السارية فى غلائل الظلمة ، وتسمع الوشيش الكامن فى هامات الشجر وحطب عرائش الدور ، والعيون تطرف ناحية اجتماع العتامة الباردة تحت السقف العالى ، يكبسون الطواقى الصوفية فى الرؤوس الحليقة ، ويحكمون الملافح حول الوجوه الزيتونية المهولة الملامح بالظلال ويلفون الاقدام بفضول الجلاليب ، ويتضامون حتى تتراكب السيقان المطوية ويقربون من العيون نسخ بردة الاباصيرى ، لكن ذبالة المصباح تهوى ، والعتامة الباردة تهبط آتية من السقف العالى ، تتحشرج الاصوات متكسرة حتى تنتهى الى بحات قلوب متزاحمة ، يتصافحون فى همس موجز ، تمتد الأيدى تبحث عن النعال مترددة .

وحارت قدمه عمياء تبحث عن المداس ، حتى اذا اصطدمت به تسللت تطأ مستقرة ، ذائقة لذعة البرد الكامن فى النعل ، يستند على عصاه ناقلا قدمه الاخرى من على حصير المسجد عابرا العتبة العالية ، عيناه تصعدان وجلتين على جدار العتمة ، وقدماه تزحفان تتحسسان ارض الطريق وعصاه تهمس فى الارض همسا معدنيا خافتا ، يحتضن عقفتها فى كفه احتضانا قويا .

فالليل حل ، لم الحياة والدفء والضوء حبسها فى القيعان ، باحات الدور والغرف المصمته الحيطان ، وانبهمت اواخر التسابيح فى أفواه الرجال الأبيين يخبون فى الجلاليب ، يقرنون السلام عجلانين مخافتين ، يعرف اشخاصهم من هياكلهم الحالكة المرسومة على العتامة ، لكنهم يغيبون فى الحارة المكبوسة بالليل .

قلبه ساكن سكون الماء فى قناة صغيرة ، يحمل على صفحته لمعان نجمات مخافتة بعيدة ، متوجس كأنما ثمة جندب يحفر مثواه فى طين الشط ، فالمبيدات الحشرية قتلت الطيور ، واعشاش مالك الحزين على فروع الجميزة القديمة باردة مهجورة ، وبين السماء والارض تحلق كآبة ساهمة ، وحول كومة الدور يترسل امتداد الحقول الشاسع صامتا كقاع الجب ، والرطوبة تتسلل الى جذور العيدان القديمة تهلكها ، ومن المثاوى الطينية تهجم جحافل الدود ، تدفع امامها رؤوسا سوداء قارضة مبيدة .

الأفق الغربى ينوء بأحمال الغيوم الداكنة الجهمة ، لكن نجمات طفلة تفلت تنتثر على صفحة السماء ، يتملى البريق الخافت ، وعلى الجانبين تستضىء واجهات البيوت ، وتبين رسوم الأبواب والكوى ، اشراق ليلى اسيان ترحم القلب ، مشى وسن العصا المعدنى يضرب قلب السكة فى وقع متحسس وئيد .

هذه العصا .. منذ متى يضرب سنها فى الأرض موقعا علاماته الميقاتية على

مسرب الزمن المتطاول ، كم توغل البداية بعيدا فى غيش النسيان ، لكنه ــ بهذا القلب المثقل ــ يرى الشيخ ، حدبته متدفعة فى عتامة المغرب ، وهو يتبعه ــ هزيل الجرم ــ فى يقظة حذرة متشوقة ذليلة ، يسيرون نحو المسجد ، وشيش الجلاليب ووقع الاقدام يحبط بنقرات عصا الشيخ الموجزة الحاسمة .

رحم الله الشيخ رحمة واسعة ، كان شيخه واباه ومولاه ، كان يقرأ البردة فى ليالى الحضرة بصوت يشق القلوب كسلاح المحراث ، وهو يجلس قبالته يتأمل جسامته الراسخة كمجذوب منسحق ازاء بهاء قبة السلطان .

رحمه الله ، يوم مات طار الفزع فى قلوب العيال والانفار والنساء ، كما تطير النار فى الحطب القصيم ، وجثمان الشيخ مسجى فى الغرفة المعتمة البعيدة ، والعصا ملقاه مغبرة بتراب الارض فى ناحية من نواحى الدار ، التقطها مسح عقفتها الناعمة ، أخذها لنفسه .

لم يذرف فى الجنازة دمعة ، كان قلبه مزدحما بهزيم انفعال مضطرم غريب وهو يرى النعش الهائل يثقل اعناق الرجال ، يتبادلون حمله منفلتين من تحته سراعا ، والقرية كلها خلفه ، النعال فى الايدى وذيول الجلاليب تحت الابط ، الناس ذاهلون مضطربون حول النعش الذى يمخر الجمع مترجحا ثقيلا .

وحينما ادخل القبر قفز قلبه يستقبله وفى الجوف المعتم الرطب الطنان سجاه تحسس الجثمان الذى مازال طريا ، حل عنه الأربطة وفك الحياكة ، تطلق الكيان . الجسيم مفترشا الثرى فى جلال تهدج صوته بالقراءة كأنه بين يدى الشيخ فى ليلة من ليالى الحضرة ، تقدم منه ــ تهمى من قلبة الدموع ــ ركز كفيه فى الثرى على جانبى الرأس ، هتك الكفن عن الوجه ، مغمض العينين مطبق الشفتين اكتسبت ملامحه صلابة جرانيتية لاتقهر ، نهض وئيداً ، مثقل الروح والقلب

يقين راسخ ، عليه ان يخرج من هذا القبر يعتقل العصا ويمشى فى الارض تلك الخطى الثقال ، فما يجعل الثرى يتطامن فى مواطن اقدام العلوج سوى خطو الرجال ذوى العزائم .

وها هو يتخذ العمامة ويشتمل عباءة الكشمير ويعتقل العصا ويندفع فى عتامة الليل الرصاصية ، يتوثق العزم فى حدبة ظهره وعضلات بطنه ، وتثقل القوة ساعدية وترسخ فى ساقيه ، والسكة تسرب بين صفين من واجهات الدور ، واجهات رمادية منصرفة صامتة .

الافق الشرقى زحام من النجوم ، نجوم متلألئة فرحة كعيال العيد ، تولد فى القلب البغتة الخافقة ، تطير الأشواق فى خيوط عنكبوت متلمسة ، يستيقظ التوق الراجف فى نوبات الخلايا ، وعلى البعد قطة تموء شوقا ، او كلب يعوى وحده على سطح دار ، امرأة تنادى نداء مبحوحا مستطيلا على جديها الابق .

لكن الوضوء يحصره ، ينقل على عرائس جنينية فى رحم اشتهائه تريد أن تتخلق، تطلق اجنحتها وتحلق ، مال يبول عند اسفل الجدار ، واذ يتعرى تسفع وركيه نسمة باردة ، وكركرة سيال البول فى التراب توقظ فى جنبيه وشوشة داغرة مسرورة .

رحم الله الشيخ ، كان تيسا فحلا داعرا ، ظل يولد نساءه الاربع الى ان مات ، ملأ الدار الكبيرة بالعيال ، يجوس فيها يسلط على لحوم النساء — زوجاته أو نساء الخدمة — نظرات كسواطير الجزارة ، ثم يزأر فيوزع الرعب على القلوب وينطلق خارجا .

وكانت امه واحدة من نساء الخدمة ، امرأة شامخة لحيمة بيضاء ، اترى

ركبها الشيخ ذات ساعة ساخنة فى كبد الليل او فى صميم الظهيرة ، اتراه سحق لحمها الوثير الابيض بثقل جسده العضلى العارم في عتامة قاع من قيعان الدار هل كان أن أبعد الشيخ أباه الضرير القمىء المعلول بيمينه الهائلة ودس فى رحم الأم نطفة تخلقت هذا الكيان الجسيم ذى الحدبة العضلية واليدين القرديتين الباطشتين .

ما اغرب ليل هاتور ، حينما تندفع النسائم الباردة فى غلائل الظلمة اندفاع أوائل الماء تبرق عيونه في شقوق الارض الشرقة ، اشتمل عباءته ، لفها على جسده ، ادخل يده فى جيب جلبابه ، باردة تتلمس الدفء فى طيات الثياب التحتية ، تنفرش على سخونة لحم بطنه ، تنتصب العضلات متصلبة فى قشعريرة يلقى بنفسه متحسسا فى عتامة الليل الصموت .

ما كان الشيخ بالرجل الذى يزنى بنساء الخدمة فى نواحى الدار ، كان يكبح رغباته كما يكبح الرجل الشديد سطوة الثور العارم ، كانت جهامته حبسا غليظا على شموس فحولته ، لكن جسد الأم الشامخ كان يتطامن ذليلا بين يديه ، تتعلق نظراتها به مفرجة الشفتين مفرجة الساقين ، يتمزق ثوبها الوحيد عن كنوز لحمها المباحة العريانة ، يزأر بها الشيخ كظيما ثم ينطلق خارجا .

وتبقى المرأة قعيدة ركن قصى تئن على الشيخ اعضاؤها ، فاذا ماتسلل اليها الأب فى هدأة الليل يسيل لعاب شهوته على صدره ، اسلمت له لحما ساخنا بلهيب العذاب يزفر آهات حرى شوقا للشيخ .

زنى الشيخ بالأم ان شوقا وان مخالطة عرقانه ، اسلمت المرأة رحمها للشيخ أن تحنانا وان انسحاقا تحت سخونة لافحة مجتاحة ، وفى الحالين تخلقت نطفته من زنى نجس حرام ، وها هو يتخذ العمامة ويشتمل العباءة ويعتقل العصا ويخطو على

الأرض تلك الخطى الثقال ، لكنه فى نهاية الأمر فقيه القرية الدائر بالقرآن على باحات الدور فى الاصابيح ، هو فى نهاية الامر مؤذن الجامع وحارس دورة المياه .

هذا الليل يحنى الهامة ويثقل على القلب كسجن ذى طبقان عالية بعيدة ، والنجوم مرتجفة كعيون العيال المرعوبين .

كان ابوه يجرجره الى احتفالات القراءة الذليلة فى المآتم وليالي النذور ، وجمع الفقهاء العميان محبوسون فى الغرف المفروشة بالحصير ، يمسحون على رأسه يباركونه بأيد عرقانة ، يدسون فى روحه خنوعا ، ثم يغرقون ، يطنون بالقرآن كالذنابير الحمر المسمومة ، يتلفتون توقعا وتوجسا ، تسيل رغباتهم الصفراء على صدرهم ، الى ان يأتى صاحب الليلة يودع فى ايديهم القروش ، والى أن تأتى صوانى الطعام ، يقبلون عليها اقبال الكلاب الضالة على الجيفة المطروحة .

كان عليه ان يفر يلحق بالشيخ فى حقله الممدد تحت الشمس يبقر بطنه بسلاح المحراث ويسوط بالصراخ ثورية المعلمين لكن ذلك مقدور ، قدرا نجسا خالط نطفته ابتداء من ساعة زنا اسلمت فيها الأم رحمها للأب القمىء فى حلال ذليل رغيم أو أسلمت رحمها للشيخ فى حرام وحشى ملعون .

قدر كفله جثث الموتى يغمضها ويغسل منها نجاستها ، كفله دورة مياه المسجد ينظفها من روث قطيع البشريين الصفر الممعودين ، قدر دار به حطه تحت شواهد القبور يقرأ القرآن بثمن قليل كعكات أو حفان تمر ، زوجه بتلك المرأة ــ بنت رفيق أبيه الفقيه الأعمى ــ امرأة شاحبة هلوع زائغة العينين مخرقة ، ضيقة الحوض بعيدة المأتى بلا رحم كالنحلة الشغالة .

لكنه ابدا ما خاف ، ما قبع ذليلا تحت اقدام الحيطان ، ماخنع للكلمات

الجوفاء الحكيمة ،ما شبع من لحم المآتم ككلب الجيف ،ما مشى حول القرية متضعضعا كسيرا فى ثوب الفقهاء الطاهر الناضح بالعرق الدسم عند الاكتاف ،لطخ بروث الدنيا ثوبه وروحه ، حفر الأرض بأظافره ، حصد بيديه واسنانه ، حاش عن معاشه بمخالبه كالحدأة ، ملأ مخازنه بالغلال وطيقان الدار بالقروش ، ختم عليها بالطين وبات الى جوارها حميصاً .

أصبحت له عباءة وصدار وحذاء ، وحينما ورثه ابوه دارا فى حارة الفقراء هدمها واعاد بناءها ، رفع عتبتها من غورها ، وسع باحتها وغرفها ، ضوء جوانبها ، عمرها بجاموسة وطفل وشياه ودجاج .

فقد تزوج امرأة سوداء شامخة لحيمه هائلة الأنف والفم ، جسيمة الفخذين ، يمخر عبابها فى الليل مبهورا بنخيرها العارم الكظيم ، ابنة عبد هى ، ربما كان ان ملك فى تلك البلاد السوداء البعيدة واذا كانت روحه قد تمزقت بسوط النخاس وورثت المرأة هذا التمزق الأليم فانه هو يعاني تشوه جرثومته بفعل نجس قديم .

وله حقل ممدد فى الشمس يبقر بطنه بسلاح المحراث زائرا يسوط بهيمتيه بالصراخ ، اسمه الشيخ أحمد ، اسم جهم المحتوى ، مكتوم الرنين ، عالق بدار وحقل وجاموسة فحلة ، مكتوب على بطاقة الحيازة ، مرصود فى دفاتر الصراف .

وهو يرتل الايات فى الليل ، فان خضمها ليزخر بقوة يعلو هزيمها على شموس قلبه الابق القديم ، وهو يصرخ فى عيال الكتاب بالقرآن ، تملؤه خلودهم الغضة المذبوحة بالعصا احساسا دامعا بأبوة متعالية دفيئة .

وهو يدور بالتلاوه على بيوت حارة الفقراء ، وان قوة القراءة لتأتيه بالنساء

خوانع ذليلات ، تأتيه بعسل ، طفلة الوجه والقلب والعيون .

ــ وريني يا بت

وكشفت عن صدرها ، انزاحت خشونة القماط عن خدود الأثداء الطفلية ، ثديان أدعجان ، حلمتان دقيقتان يدور حولهما الاسمرار والزغب ، أمسكها الشيخ أحمد ملء كفه طراوة ونعومة ، ملء قلبه حنانا .

ــ بت .. انت حبلى .

ــ يا فضيحتى

ــ هوا مين

ــ ....

ــ فين

ــ فى الغيط

ــ يا هبله

وبكت عسل ، بكت وبكت ، أخذها فى حضنه ، ضمها اليه ، صارت له ، تسأله وتنصت له مرتجفة وهو يقول .

وها هو يدب فى العتامة مكينا وثيقا له هذا الليل ، الليل حقله المروى ، زريبته العامرة بأنفاس البهائم الساخنة .

مال على الشباك المضىء المقسم بأعمدة الحديد فى صدر الحائط الرمادى المعتم تشبث بالحديد البارد الصدىء ، أطل على الغرفة الخالية المدهوكة الحيطان بالطين ، المضواة بشعاع اصفر كاب ومن اسفل عتبة الشباك انبعث رأس سليمان ، ومن وراء القضبان الحديد أطل ، تتقطر ملامحه الرمادية بكاءً أخرس ذليلا ، وجه أحرقته السنون والثكل ، صوحته كأنما هو شاهد طينى منصوب على جدث قديم .

تناول سليمان القرش ، أسقطه فى العلبة ، مد يده الرقيقة المرتعشة بالسيجارة ، تناولها الشيخ احمد ، وأراد سليمان ان يعود الى رقوده على الدكة أسفل الشباك ، لكن عينا الشيخ أحمد الشائهتين بالعمر والمرض ــ ظلتا عليه ، بادله سليمان نظرات تعبى ، متكسرة الجفن ، تثقل هامته على رقبته النحيلة الواهنة ، وتهوى مع رتابة انفاس قلبه .

أغمض الشيخ أحمد عينيه على همهمة تترسل فى صدره ، نهمى مترتلة كبكائية الثكلى ، تشبث بالحديد أن يتداعى ، أن يبقى عند أسفل الشباك مضعضعا ذليلا ، محدودبا منكمشا على نفسه ، جلسته القديمة يرتل القرآن تحت شواهد القبور .

لكنه تماسك ، وبصوته المشروخ بهواء الليل الباردة طلب كبريتا ، أشعل له سليمان سيجارته ومضى توا الى رقاده المطمئن ، ومشى الشيخ أحمد ، تتسلل صكات العصا على الأرض متعثرة ، يتتابع جذب الأنفاس وزفر الدخان فى تنهدات كسيرة .

الخطى تلقى بالسارى فى المهامه الممتدة ، والليل مقبرة راكدة الصمت والظلال ، ووقع الخطى يعصر القلب بالقهر ، يحل وثاق الاطمئنان ، ينهار العزم انهيار كومة الرمل الناعم ، ورث سليمان عن أبيه حقلا وبهيمة ودارا ، وولدت له امرأته عيالا ، لكنه أبدا مارقد على عشه ليدفئه ، أبدا ما سمد جذور عيدانة الغضة ، كما أحاطها بقلبه ليذود عنها الرياح ، كان دائما عزوفا منصرفا شاردا متفكرا نظيف الثوب واليدين ، والحيوات الطفلة تموت فى حقله السبخ وداره الصامته التى تمرق من منافذها الرياح .

مات سليمان من يوم أن شب ، من يوم أن عزف عن الحياة ، من يوم أن

آعرض عن توسيخ يديه وقلبه بروث الدنيا ، كيف يبقى فى هذه الدار الصامته الرطبة الطنانه كشاهد طينى مقبض ، كيف تبقى عيناه مغروستان فى القلب .

لم لا يموت الرجال كما تموت الثيران منحورين بسكاكين الجزارة ، يصارعون حتى تتفجر الرقاب بالدم القانى ، لم لا يندرس الرجال كما تندرس الثيران ، أليس نظاما فاسدا أن تنام شواهد الطين على الاجداث وتبقى مطلة فى الليل كعيون مكبوسة بالعمى ، وأن يخف هزيم قرى الاحياء بصمت القبور الباردة الرمادية ، تكبس على القلوب والأرواح ، على لغط الناس وسخونة تخالطهم وتزاحمهم بالرغائب والشهوات .

لكن الناس يعيشون ، يخبون بالجلاليب وحفيف الأقدام فى البهمة ، راجعون فى الليل كسباع الطير ، مسارعين ، يقرأون السلام مخافتين ، يسرى الهمس خلف غلائل العتمة يبصبص كلحظ السارقين ، كومض عيون القطاط الخطافة ، وسوسة يعرفها قلبه ، تومض فى عينيه جسارة تستأنس الظلمة ، يتوثق فى كيانه حولا لم ينكسر تحت وطأة الايام المجدبة .

يتسمع فيدرك قلبه عواءاً طفليا بعيدا ، كأنما غيابة البهمة وجار كلبة سوداء والدة تعبق بأنفاس الحياة الجديدة ، انه مخاض بهيمة ، انه عجل جنين يتقلب فى رحم الام يجهد ليخرج ، يسعى بخطمه الاسود المبلول على ريح ليل هاتور الدسم الرطيب .

يا ليل هاتور الجهم الملامح كوجه الرجل الحكيم، العامر بالثراء كقلب الرجل الحكيم ، الطرى كثدى الرضع ، الحافل كثدى المرضع ، ياليل اغتذى على الأوائل الشتوية ، مخملى كورق البرسيم ، دسم كورق البرسيم ، مخلوط النسائم برائحة دم الولادة .

ياليل نائم تحت بطون الجواميس الحبالى ، راضع فى اخلاف الجواميس الوالدة ، مباركة رؤوس العجول العمياء الباحثة عن فتحة الرحم لتخرج ، مباركة الاخلاف الثرة ، مباركة رائحة سوائل الولادة ، وعبق الطبيخ ، ولزوجة السناج رجشاد الشبعى .

مباركة الدار العالية الحيطان وسط الدور القميئة ، مباركة الكوى المدخنة وأعلى الباب المسود ، مبارك الدخان الصاعد من الفجاج وخلل الجدران وحزم الحطب على السطوح .

ارقد بالليل على الدار والقلب كدجاجة أم مقرقرة فواحة بالنتن ، ضم فى حضنك الناعم المزغب النائمين بقلوب صاحية ،العراة الغارقين فى العرق ، الأثداء الناشع من حلماتها اللبن ، احلام البيع والشراء والشبع .

دفع باب داره انفتح ، امتلأ قلبه بالباحة الدافئة المضيئة ، باختلاط الروائح والأصوات المبغمة من البنانى والأفنان والزريبة والغرف التى آوى اليها العيال ، ابتهج ابتهاجا غضوبا ، رسخ فى مكانه راكزا عصاه متلفتا حواليه ، اقبلت عليه امرأته القديمة تتطلع ، تهرف تولول ، لكزها فى صدرها شاتما ، انقلبت تجرى متخبطة إلى الغرفة الداخلية ، صفقت الباب إنقفل وراءها ، انحبس صخبها لايبين .

زفر مرتاحا ، القى بالعصا والعباءة والعمامة والجلباب على وتد الحائط ، توترت طاقتا انفه تشمما ، يدفعه خيشومه المرهف ناحية الزريبة ، مشى اليها حافيا عارى الرأس فى سرواله وصداره ، تفعم الرائحة رئتيه ، يحدق فى تهاويل الظلام وشحوب الضوء حتى يبين له هيكل الجاموسة ، والمرأة السوداء تحمل على رأسها اللمبة ذات الشعلة ، تراجع الى الوراء قليلا ، مشت المرأة مفسحة له ، تهتز اللمبة على رأسها فتتخالط الظلال ومناطق الضوء .

بطن البهيمة تتدلى ، والضرع مزدحم ، تكاد الاخلاف المنتصبة المحمرة أن يتفجر منها اللبن ، والجاموسة تباعد بين خلفيتيها ، وقف ازاءها يتأملها محدودبا ، والمرأة السوداء فى مكانها جهمة لاتريم .

أغمض عينيه ، توشك ان تنحدر على وجهه دموع فرحة طفلية ، فغد أو بعد غد تلد الجاموسة ويرتجف قلب الدار على نعار العجل الوليد ، يتدفق سيل اللبن وتتمرغ الأيدى فى الدسامة .

فتح عينيه ضاحكا ضحكة وانية قريرة ، فان ملامح المرأة السوداء ضخمة غير متناسقة كأنها قطع من الطين القيت على عجل ودونما اعتناء ، غير ان لمعة عرنينها وومض عيونها معبأ بأنفة عنيدة .

مشت امامه ، ترتدى قميصا وحيدا يبدى تلاطم لحمها ، تبعها يغرس نظراته فى عجيزتها ، عند باب الزريبة مالت عن طريقه ليسبقها ، اذا حاذاها قبض على ثنيات لحم بطنها ، انشب فيه أصابعه ، تحت يده بقوة متثنية فحلة ، قد تدلت شفتها السفلى وتحول سواد عينيها مسفرا عن لمعة بياضهما فى الضوء الخابى ، مشت وعرامة تكوينها مفضوحة تحت قميصها الخفيف .

تبعها يحدق فيها بعينين محمرتين ورأسه نازلة عما بين كتفيه كالكلب ، تحس سخونته وراءها لكنها لاتبالى به ، تدور فى الدار ، ترفع الأوانى والمكائل والحبال من بعثرتها ، تعيدها الى أماكنها المعلومة ، تطل على الأرانب فى الاخنان ، تملأ مساقيها وتزيد علفها ، تعد الدجاج فى الصوامع ...

زفر مغيظا محنقا ، ثم قفز على ظهرها حزم ساعدية حول بطنها معتصرا لحمها الوثير وقلبه يضرب كالطبل ، لكنها انفلتت من وثاق هجمته مبتعدة ، عاود

الهجوم لاهثا ، وهى تنافح شرسه ، طرادهما المكتوم وفحيح أنفاسهما المبهور يضطرد فى اطار من همس الحمائم وتنهدات الفراخ فى الصوامع ووثبات الارانب الصارخة فى الأخنان .

والرقصة الليلية الساخنة تزداد سعارا ، يلاحقها ، تناضل مراوغة ، يدخلان مناطق الظل ، يندفعان الى شرائح النور ، يتلاطمان ، يرتطمان بالحيطان ، تند عنهما الشهقات أو الزفرات أو الصرخات المنبترة .

كلما كبشها زاغت ، أصبح وجهها بشعا ، وشعرها هائش منكوش ، القى بنفسه عليها منشبا اصابعه فى لحم جنبيها ، ملقيا بها على المصطبة ، يسحق صدرها بصدره ، انقض على شفتيها مغمضا يعض كتلتهما بأسنانه ، ريقها يخالط ريقه مخالطة مبلولة .

انفلتت من تحته ساقطة على الأرض ، لحق طرف قميصها ، لواه على قبضته ، جرها وراءه لاهثة الى الغرفة ، تمشى ملقاة الرأس الى الخلف ، تعمل فى ظهره واكتافه بأصابعها ، عاريه حتى خاصرتها ، ساقاها اسودان يدقان الأرض ، ترتج كتل لحمها فى سيرها المقاوم الرغيم .

دفع بها الى داخل الغرفة ، رفس الباب صفعة وراءه ، التفت اليها كالنمر وهى تخربش وجهه وتعضه وتشتمه بهمهمتها الوحشية ، حمل ثقل جسمها والقى بها على ظهر الفرن ، قفز لحقها ، ركبها كحجر الطاحون يلبس محكما فى مجاله ، وجهها يتحرك يمنة ويسرة وساقاها يتبادلان رفس الهواء وهو فوقها لا يفلتها ، حتى بدأت تلين له ، تجاوبه ، تعطيه .

ثم جن جنونها ، لفت ساعديها الجسيمين حوله ، تدفع صدرها الى حضن

صدره ، تمرغ وجهها فى وجهه ، تقمص تحته ، تعض رقبته تحتضنه بساقيها ، تضطرم عارية ساخنة غارقة فى العرق .

انتابته رعدة .. رجع .. فتح عينيه على وجهها ، حائلة بياض العينين ، ملتوية الشفتين ، متقلصة الملامح بشعة ، امسكت براحتيها وجهه الذى نبأ عن صدرها ، ضمته اليها بقوة ، مفعمة العينين بوله مجنون ، طاوعها عائدا ، يريح خده على نعومة ثدييها ، لحظة حنان لم يجرب عمقها ابدا .

النهار

.. مقدور أن نقوم ، ان ننتزع من حضن الليل بأيدى النهار البرصاء التى تلج ركن الغرف من فرج الشبابيك ، مقدور أن نقوم ، تدفعنا من اعماقنا مخافة الفوت ، نحمل قلوبا مدفونة فى الصدور كضفادع مدفونة فى طين الشطوط ، تنق نقيقا ضارعا أخيرا ، وبعد آن سوف يعلو وضح النهار وتضيع ضراعة القلوب فى الصخب المختلط .

يثقل الهم روحه وجسمه ، متوجس من الصبح توجسه من بهامة الليل ، يحدق فى شقوق الشباك الفضية ، اشتبهت وضاءة الشروق بكآبة الغسق ، وجفت دماء القلب ، اسود كجلدة كير الحداد .

يعرف قدومهم مع الليل البارح ، قطع من الظلمة ساخنة الأنفاس ، مثقلة عواتقهم وظهور دوابهم ، ركضهم اللاهث الساخن ناشب فى عروق العتمة ، واصل الى كل قلب كأنهم الذئاب الغبراء ، والليل يراكم على ظهورهم وحزم بضائعهم بلولة الطل ، لكن قلوبهم تفور كصفائح الشاى المسودة فى حضن نيران غريبة .

واذا يعلو الضحى تحتشد القرية في الباحة أمام المسجد دائخة مخدرة كسيرة ، شاه ضربها ذئب السوق فى ام رأسها بنابه ، فى وجوه الناس نشوة خوف ، وفى ضحكاتهم رجفة ، يحملون اشياءهم بأيديهم ، تنوشهم لعبة الموازين والصراخ والعيون .

وفى العصر ، عند أقدام الحيطان ، وفى الحارات وباحات الدور ، تتكسر القامات والظلال ، وتتكسر الكلمات ، فى جرسها غنة انثى كسيرة ، يحكون عن السوق ، عن البيع والشراء مستطعمين لذة الخضوع للافتراس .

مازال المصباح على الرف الطينى يضيء العتمة ، لكنه عجوز متكسر ، وبقايا الظلام معلقة ، من أرجلها فى الأركان القصية ، وبساط النهار يفرش أرض وسط الدار ، تتمدد حواشيه تزحف على الحيطان أكيلة باردة .

يتصنت ، يسمع سنيال اللبن يشخب فى الشلية ، يسمع غمغمة العيال والفراخ والحمائم ، القلوب الملهوفة على الصبح تنقر شرانق الظلام ، بعد أن تأتى المرأة السوداء تطلقهم من الغرفة والأخنان ، تطلق نهارها الذى تملكه لنفسها ، تطعمه وترعاه ، تحيط به وتحوش عنه ، وفى المساء تحبسه ، تغلق عليه وتنام .

المرأة القديمة تتحدر نازله على السلم الطينى ، يداها ملوثتان الى المرفقين ، جهمة نكدة تولول وتهرف وتشتم كل شيء ، ما عاد ينهاها ، أصبح يعرف امتلاء القلب بالذعر ، وكيف تخف رأس البشرى حتى يشابه دجاجة طائشة ، ما عاد ينهاها ، انما يلقى اليها سمعه وهو قائم يراقب نوبة هياجها حتى تستفرغ طاقتها ، تتحدر دموعها وتتكوم على الأرض يهزها النشيج .

والبنت الكبيرة تدور في وسط الدار ، تبذر الحبوب للدجاج النهم المتزاحم

الصخاب ، تأملها ، استراحت عيناه على نماء ثدييها واستدارة بطنها ، وانسحاب فخذيها فى قميصها الخلق الخفيف ، خطوط جسمها تنسرح فى حزن لين رقيق ، وجهها أسود قبيح ، لكن ملامحها تنطق بذلة تربت على القلب ، كم يحبها ابنته البكر ، الغضة ، صمتها هامس منعزل فى صخب الدار ، وسط ضجيج الذكور الخارجين من الغرف مطموسى العيون بلطخات الشمشم الابيض .

اشتمل عباءته واستند على عصاه ، لايريد ان يقوم ، لكن ثمة يومافى حياة الرجل يخرج فيه من داره راغما ، مدفوعا من دبره كالعجل .

وقف على الباب يتأمل الشمس المفروشة على الأشياء ، ذهبية متهدبة كريش معارف الديوك ، دافئة ناعمة الحضن كالزغب فى بطن دجاجة أم ، من ذلك الكن الدفىء يخرج المتسولون ، جرذان الهدائم الخوافة .

ربما افجع مافى الصباح متسولو الصباح ، الأغانى الكسيرة ، دفوف المداحين ، المذلة الدامعة فى عينى الحمار ، الشراسة الحقودة فى دعاء المجذوب ، ينقر الباب ويمشى ، والأسئلة تنزع فى صميم القلب المبسوط كراحة اليد .

يسأل عن اسماعيل ، طلاع النخيل القديم ، يدور بالأبواب يجمع أرغفة الصدقات الصبحية ، باب ثم باب ثم باب ، ملق على العكاز ، تبربش عيناه من تحت الأسمال ، هل يمشى ناحية الدار ، هل تدب خطواته تجاهه .

ـــ حسنه لله يا سيادى .

روعت الشيخ خشخشة الصوت المكسور .

ــ صباح الخير يا سماعين

نكس اسماعيل عينيه ، خنفساءان تبحثان تراب الأرض .

ــ حسنه لله
ــ انت مش غريب
ــ انا ماشى

استطالت رقبة الشيخ أحمد من بين كتفيه مندفعة نحو اسماعيل ، يهتف به هتافا حارا .

ــ ليه .. هو ايه .. هى الدنيا ماتت

واسماعيل يتململ فى مكانه ، مذعور العينين ، يخفى ابتسامة جنونية تحت شاربه الأغبر الكثيف ، زفر الشيخ يائسا لا شىء يشغل اسماعيل سوى قرص الخبز ، ناوله الرغيف ، اختطفه وانطلق يظلع .

اسماعيل سقط ، طلاع النخيل القديم غدرت به النخلة الحمراء العالية فى الجرن بظاهر البلد ، وكم طلعها خفيفا عارفا يحرق شفتيه عقب سيجارته ويطلى شاربه الكثيف بالصفار .

وعسل طالعة ، تتريث قليلا على العتبة ، مطلية بالشمس الذهبية ، الشال والكحل والابتسام ، عقد باب دارها العالى متقوس حول بهاء وجهها واكتمال كتفيها .

ـــ صباح الخير يا شيخ أحمد

ـــ خير يا عسل

والقلب لا يزال ، وفى القلب ما تزال يوم جاءته ، رسوم اللحظة على امتداد جسده كالوشم لا يزيله مرور الأوقات .

لكن عسل ما عادت تسأل ماذا تفعل تزوجت الوغد ، لوحت فى وجه النا س بالوثيقة ، ثم طلقته وعاشت بنفسها تسرح وتئوب ، تبيع وتشترى ، تعلى حيطان دارها قبالة داره ، تحب التلاميذ تضاحكهم على قارعة السكة ، تشرب سخونه أنفاسهم فى ظلمة الأركان ، وهو ها هنا تقرئه السلام فى الصباح والمساء .

انشجبت كل الأشياء ، انشعبت الحقائق ، وعلى الفرو ع السارحة فى كل اتجاه بتراكم التراب ، وتعمر ما بينها كآبة الغربة ، ويغبش صفاء التعارف لكنها الصبحية ، وذلك الحنين اللاهف المتسائل .

ـــ بعت عجلك يا شيخ أحمد

الرجال تهرم ، الكلمات كالرجال تهرم ، يخبو بريقها وتتغضن ، وتصير حافلة بالندوب مشحونة بالكراهية .

ـــ مستنى التجار .. وربنا كريم

ولو انصتت له لبكى ،وحلف حتى ترضى ، حتى تعود لعيونها طفولتهما وينفك من حول قلبه إسار الرعب .

لكن عسل تضحك بلا سرور ضحكا مريرا ، يوجع ندوب القلب كأظافر القطة .

عرف خروج المرأة السوداء من باب الدار خلف ظهره ، استدار لها دونما ارادة ، جمدا متقابلين لجزء من الثانية ثعبانان يترامقان بمقل عارية من الجفون زوجان متعارفان الى الزهد الموات الذى لا تنبض فيه رغبة ، لا يتكلمان منذ أن كف الكلام عن ان يكون اكتشافا ، ونضب من البداهة ومن رقراق الطلاوة ، يموت موءودا فى القلب وتولد بينهما لغة خرساء صموت كلغة النمل .

الرجال يمرون به محملة ملامحهم بكآبة العزم ، ممتلئون صمتا ومخافة وذاهبون الى السوق ، والنساء يبصمن على السكة اقداما لينات كمخالب القطط ريح السوق الزحمة المتربة ، القوية كدفوف الزار ، تنشب فى اعماق الحارات والدور ، توقظ فى القلوب قحباً قديما ، تزقزق فيه صرخات داعرة لا تسمع .

يتقبل التحيات الصبحية ، ويخافت كارها بالاجابة ، ويعرف اقبال التجار ناحيته ، يحشون اشداقهم ضحكا ، ويلوون وجوههم فى الجوانب ، تتجاوز عيونهم قلقة المتضام المكتوم ، طاوين جوانحهم على أكياس نقودهم المنتفخة .

يروعك الرجل الذى يشيل ثراءه كله فى حافظة نقوده ، هى حقله وبهيمته ، مبذولة بين يديه كالفخ ، حاضرة مرهفة كالمخلب ، تخالس اليقظة والحرص ، وهى كالصقر طائر محُوِّم منقض .

ـــ سلام عليكم يا شيخ أحمد
ـــ عليكم السلام

لكنهم لن يسرقوه ، ولن يعرفوا عن مخافة قلبه .

وهكذا استوثق لجلسته فأسند ظهره الى حائط وسط داره ، وركز عصاه فى الأرض محتضنا ركبتيه بساعده ، والتجار يفحصون العجل الطفل بغلظة وبلا تحرز ، ثم يعودون يتحلقون حول الشيخ تبتسم العيون والشفاه فى فتور .

وفجأة يحتد واحد منهم ويطعن العجوز بكلمة كالخنجر
ــ انت هتبيع ؟

تتخدر فرائضه ويحدق فى وجه المتكلم الغاضب غير فاهم شيئا
ــ امال هلعب ؟

يتدخل آخر شارحا رصيناً هادئا باردا كالسم
ــ أصل انت يا شيخ أحمد مرجعانى .. ومالكش كلمة !

ينحل وثاق جلسته ، يتربع مفترشا الأرض ، والعصا ملقاه أمامه ، هكذا .. يشتمونه بلا موارية ،وتحاصره وجوههم بالجهامة .

ــ جرى أيه ياجماعة ؟

يضحك أحدهم مادا يده للشيخ ودون وعى تمتد يده ، خائف ككلب مبلول تحاصره العيال
ــ ثمانية جنيه .. بعت ؟
ــ لأ ؟

واصابعه تتملص فى ارتباك من اثار اليد القابضة ، والرجل يعصر اليد الهرمة بقسوة ثم يلقى بها زاهدا قرفانا

ـــ الراجل ده مش يباع !

ويترسل آخر فى الكلام فاترا حالما يتأمل اصابعة تلف ورقة البقرة حول حبة الدخان .

ـــ ايوه .. حاجته غاليه عليه .. عين فى الجنة وعين فى النار .. والبيعة اللى زى دى مافيهاش رباح ! ..ويضيف آخر

.. ويضيف آخر .

ـــ وبتاخد فى سكتها !

والعجل واقف قبالة الشيخ هشا تعبا مفرق القوائم ، متدلى الهامة جاحظ العينين ، والبنت تدور من بعيد ترى أباها بعينين باكيتين ، يستطيع ان يطردهم خارجا ، وينادى ابنته اليه ، ويقول لها أن تعنى بالعجل ، وسوف تفهم وتلزم الحيوان الطفل ، ولا تخرجه من قلبها ابدا ، لكن كابوسا يقهر ارادته بالجمود .

يتودد اليه احدهم :

ـــ العجل هزلان يا شيخ أحمد .. مراتك ما بتخليش فى فمه حفان لبن يقوته !

يعرفون عن سطوة امرأته فى الدار عن شحها على بهائمه ، وهوان حزمه عليها ، يشيرون الى عورة حياته باصبع همجية

ـــ ما نيش بايع
ويقهقه احدهم
ـــ ولا بتسعه ؟
وكاد يبكى حقا وهو يقول
ـــ لأ

وقاموا يخرجون تنسحب الضجة مع خطوهم ويفرش على اعقابهم الفراغ .

لكن على العتبة رجع احدهم وحافظته فى يده يقول فى حزم صادق رصين
ـــ اسمع .. العشره اهه .. فيها جنيه مش بتاعك .. هيه .. قلت ايه ؟

ويتبعه اخر ممتلىء الفم بالضحك ممتلىء الكيان بالرقص يكلم زميله
ـــ معلش .. يقرأ بيه سورة البقرة على أبوك

لكن المتكلم لا يبالى بالفكاهة ويصرخ بالشيخ أحمد
ـــ بعت .. ؟ قول يا أخى بقى .. ينعل ابو دى بيعة

وينصهر العجوز فى لفحة الغضب
ـــ بعت ..!

يأتى اليه الثالث كأنما هو موشك على تمزيقه
ـــ بعت دى كمبيالة .. ترجع في الكلام لأ .. احنا مش عيال

والجنيهات العشرة فى يده لايحير جوابا ، وهم يأخذون العجل ، يدفعونه من دبره خارجين ، وادا بصمت وسط الدار بعد خروجهم يدرك الشيخ انه

سرق ، سرق بدناءة وبلا رحمة .

انطلق يجرى على آثارهم ، زوبعة من الاصوات تحمله كورقة ، تعصف به عصفا ، تعلو فى صخبها المختلط الغاضب قهقهات عسل كفرقعات سوط ، وقهقهات عيال الكتاب الذين كبروا واخذوا عسل الى كل الاركان ، قهقهات اتية من شقوق الارض من ابعد ايام العمر ما عاد شيء ، ما كان شيء ، كل الأيام خرائب ينعق فيها البوم ، يوم على رأسى كل يوم ، كان يجب ان يعرف انه لا جدوى فيأخذ حبله وسكينه ويسرق ، الان يبارك السارقين بصراخ مخلوط بالدم من قلب هرم ، هرم ، لكنه قادر على ان ينشب اظافره فى حلقوم رجل ، ويموت وعلى نواجزه امشاج من لحم ودم .

وحالما تميزت ملامح تاجر البهائم فى عينيه انشب مخالبه فى حلقومه ، تغور فى غضارة لحم الرقبة ، والرجل المذعور أهوى على وجهه بصفعة هائلة فجرت برقا فى عينيه ، وصفرت فى اذنيه صفيرا حادا مستطيلا كأنما فى داخله بئر بلا قرار .

الناس محدقون ، وجوههم صفراء عطل من طلاوة القساوة بليت ملامحها كما تبلى دهاكة الحيطان ، موصولة بقلوب عليله ، تندفن الرؤى فى أغوارها السحيقة تحت ركام ألف عام من القهر والمخافة .

لكن الحدث فعل فذ ، نشب فى تويات الخلايا قبل ان يلحقه الادراك ، ارتعدت الفرائص فى غيبة الوعى ، تفجرت الرؤى من اعماق القلوب العليلة دامية شرسة ، عاوية متعاركة كذئاب جياع في ظلمة رائعة اعمت البصائر واطلقت حبائس الامكانيات الجارحة ..الساقطة .. كبروق الليل الموجزة .

وغمر الضحى هذه الكيانات البشرية الهزيلة وجلاليبها المتسخة ، أضاء

الوجوه الكابيه تحت الطواقى الصوفيه ، يصنع لهم ظلالا متكسره متفرقة ، قياما متباعدين او قعودا مبعثرين على دكك المقهى ، يبصرون بالرجلين يقفان متقابلين على وجه الاول صفعة وعلى رقبة الاخر اثار اصابع خانقة ، ينظرون اليهما ذاهلين ، غير فاهمين شيئا .. انما

حصل خير .. حصل خير

ويدفع الشيخ بعيدا ويدعى تاجر البهائم الى الجلوس وتناول الشاى ، الحركة والكلام يثقلهما وجوم ، فقد كان حلما باهظا صحوا منه مشلولى الايدى والارادة ،

والشيخ يجرى ، يحمل موته على عاتقه مبتعدا ، مرتعدا ككلب مسموم يبحث عن ركن قصى يموت فيه ، يدور بعينيه فى الجوانب ، يروعه صخب السوق ، تتساقط على رأسه الصيحات والصرخات ، تلكزه فى جنبه الاندفاعات الفجائية ، وتهمم علية بشاعة الملامح وتشنجات حوار الايدى والاصابع .

دفع الباب ، الدار صامته كالقبر ، دخل الغرفة ، كافح بكل طاقته ليصعد ظهر الفرن ، سقطت عمامته وعصاه ، كافح بأظافرة وأسنانه، لحقت به ابنته الكبيرة ، اعانته حتى رقد ممددا على الحصير ودائرة فضية من كوة الحائط تسقط علي وجهه .

ابنته تطل عليه ، وجهها غائم بلهفة خرساء وهى ترى تقلص ملامحه الأليم تأخد يده بين يديها ، جامدة باردة كالثلج ، تنشج منادية اباها ، تمرغ وجهها فى بسطة راحته الباردة ، تدعكها فى دفء لحم رقبتها ، تدفئها فى صدرها مغمضة العينين هالعة ، يدور وجهها فى الجوانب جزعا على ابيها ، تحضن يده اليها ،

تعطيها بكل طاقتها من دفء ثدييها الطفلين .

وراحة اليد متصلة بخفقان قلبها ، وحر صدرها ، مبللة بدموعها ، تدفأ ، تمشى فى عروقها حياه مرتجفة ، تدب الأنامل الواهنة ، تحيط الراحة الكبيرة بتكور الثدى .

ودائرة الضوء ساقطة على الوجهين المتقاربين ، على يدي البنية مضمومتين الى صدرها تحتضنان اليد الهرمة فى ضراعة مرتعبة . سخونة تلهب وجهها ، تضرم فى عروقها نارا لم تعرفها ابدا ، مخافة مضرجة بالمسرة ، تكاد تجحظ عيناها فى قبضة عماء مفزع .

لكن ملامح الوجه الهرم تسترخى من قبضة التقلص الاليمة وتستريح ، ويستضىء الوجه برضا قرير ، تنزل دموعها دفيئة ، وتحتضن اليد الأبوية فى حنان وتحكم بسطة راحتها على جماع ثدييها وتستسلم لحرقة البكاء .

وفجأة يقسو الوجه ، تتصلب الملامح تتسع حدقتا العين فى تركيز باتر غير مبصر ، تعبير لم تره على وجه بشرى ابدا ، تتدفق مخافتها من آتيه من اغوار عروقها ، تحس الألم الموجع لقبضة اليد المتشنجة ، تصرخ صرخة فزعة .

من صوت انحطام عذرية البكر الباقى فى قلب كل رجل ذكر ، من صراخ البنات يصنع الوهج الحامى فى أضاحى الأسواق الرجفة والترويع والجنون فى صدر النهار المترب المنصوبة فيه قدامى الحيطان مجللة الرؤوس بالحطب المصوح ، النهار الباهر الشرس الواصل الى اطواء السرائر والهواجس .

والشمس . سبح . لطخت نفسها بالطلاء وازدهت فى ضحى هذا اليوم من

ايام هاتور ، انشبت مخالبها فى الناس الدائخين ، الخائضين سحائب الغبار ، المعذبين بالقلق والرغبة فى البيع ، تلك الرغبة الانثى المهيضة المفرقة الساقين فى ساحة السوق .. فى عرس اللواط ، والشمس تضحك اذا تتخضب ايدى التجار وصدورهم كما يتخضب الحاصدون بدماء البرسيم .

نجست الشمس والأرض ، نجست السكك وذيول الجلاليب ، نجس التراب والقتام ، نجس البيع والشراء .

رقم الايداع بدار الكتب ٨٥/٧٨٦٨
الترقيم الدولي ٥ — ٠٣٦ — ٤٤٢ — ٩٩٧ (ISBN)

«الظنون والرؤى» هى القرية المصرية ، أفراحها وطقوسها ، أوجاعها وغضباتها ، تردّيها ومجدها ، واقعها وحلمها .

لم تُكتب القرية المصرية ، قط ، فى فنّ القصص ، كما كتبها عبد الحكيم قاسم ، كاتبها الصنّاع ، درويشها المولّه بعشقها ، المعجونة روحه بطينها ، الموزَّع قلبه على ناسها ، المعلّق هواه بأهوائها .

عبد الحكيم قاسم يعرف الفقر والألم والمرض والعماية والموت ، فى القرية ، ويعرف كيف يصوغها ، لأنه يعرف ويصوغ أيضاً غناها الفاحش ، وشبق نشواتها ، وحبّها الحياة ، وايمانها الأولىّ العميق . هو يرصد دقائقها وخفاياها بعين المحب العارف ، ويد الاقتدار .

الكاتب المصرى الأمين ، عبد الحكيم قاسم ، يُشكّل لغته من تراث عربى عريق ولكنه يبعث فيها حياة مونعة ومونقة ، لدنةً مطواعاً ولها أيْدٌ وعَضَل ، ترِفُ بماء الحياة الشعبية الخصيبة ، لغة كثيفة القوام ، واقعية وشعرية فى آن ، تمنح قوّتها من الرصيد السلفى ومن الكلام اليومىّ معاً ، من التيار الصوفى التحتى المتجدد فى وجدان الناس ، ومن فكر مُعَنًّى بآلامهم ومستشرفٍ لأفراحهم ، معا .

إدوار الخر[اط]

٢ جنيه

دار المستقبل العربى
٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت ٦٦٥٩٠٠ القاهـــرة